الأربعون النبوية
في رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته بأمته

د. توفيق علي زبادي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأربعون النبوية
في رحمة النبي ﷺ وشفقته بأمته

مقدمة:

الحمد لله الرحيم الرحمن، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمةً للعالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، الشفيع المشفّع يوم الدين، وعلى آله وأصحابه وأمته الطاهرة إلى يوم الدين.

أما بعد،

فما من نبي بعثه الله إلا وخصّ قومه بدعوته، إلا نبينا محمدًا ﷺ، فقد بعثه الله للناس كافة، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، واصطفاها بكرامات في الدنيا والآخرة، وجعلها في قلب نبيه ﷺ: همّه، ودعاءه، وشفاعته.

وهذه دعوة للتأمل في الأحاديث النبوية التي تكشف عُمق شفقة النبي ﷺ على أمته، وتبيّن منزلتها العظيمة بين الأمم يوم القيامة، وتعرض الشفاعة العظمى، ومواقف النجاة والكرامة التي خُصّ بها أهل هذا الدين.

وهذه الأحاديث أثر من آثار رحمته وشفقته التي وردت في قوله تعالى:{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌعَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم}[التوبة:١٢٨].

فلهذه الصفات التي وصف الله ﷻ بها نبيه ﷺ أَثَرُ في إظهار الرِّفْقِ بِالْأُمَّةِ، وَالْتحْذِير مِمَّا يُلْقِي بِهِمْ إِلَى الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمِنْ آثَارِ ذَلِكَ شَفَاعَتُهُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ فِي الْمَوْقِفِ لِتَعْجِيلِ الْحِسَابِ[1].

إنها أحاديث تهمس في أذن المسلم أن لا تضيّع شرف الانتماء إلى أمة نبيُها يبكي لأجلها، ويدعو لها، وينتظرها على الحوض، ويقول في الموقف العصيب: "أمتي أمتي."

إنه الرحمة المهداة تمشي على الأرض، وتمتد إلى الآخرة، وحيث نبيٌ يحبُك، ويريد لك النجاة.

نسأل الله أن يجعلنا من أمته حقًا، وألا يحرمنا شفاعته يوم العرض الأكبر، إنه أرحم الراحمين.

---

[1] انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١١/ ٧٢.

حديث الشفاعة

تفضيل وتشريف

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟

فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ.

فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.

وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.

وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي.

فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى - "[1].

شرح الحديث:

أمتي يا رب أمتي يا رب أمتي يا رب: **أي: سؤالي خلاص أمتي أي: خلص أمتي من موبقات القيامة.**

قول آدم ومن بعده نفسي نفسي نفسي: **أي نفسي هي التي تستحق أن يشفع لها.**

وفيه تفضيل محمد ﷺ على جميع الخلق؛ لأن الرسل والأنبياء والملائكة أفضل ممن سواهم وقد ظهر فضله في هذا المقام عليهم.

قال أبو العباس القرطبي- رحمه الله- ولو لم يكن في ذلك إلا الفرق بين من يقول نفسي نفسي وبين من يقول أمتي أمتي لكان كافيًا.

وفيه تفضيل الأنبياء المذكورين فيه على من لم يذكر فيه؛ لتأهلهم لذلك المقام العظيم دون من سواهم وقد قيل إنما اختص المذكورون بذلك لمزايا أخرى لا تتعلق بالتفضيل فآدم لكونه والد الجميع ونوح لكونه الأب الثاني وإبراهيم للأمر باتباع ملته وموسى لأنه أكثر الأنبياء تبعا وعيسى لأنه أولى الناس بنبينا محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكونوا اختصوا بذلك؛ لأنهم أصحاب شرائع عمل بها من بين من ذكر أولا ومن بعده[2].

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ قَدْ غَفَرَ لَهُم؛ فَلِمَاذَا يَمْتَنِعُونَ مِنَ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَجْلِ مَا بَدَا مِنْهُمْ؟

قِيلَ: هَذَا مِنْ كَمَالِ فَضْلِهِمْ وَخَوْفِهِمْ وَعُبُودِيَّتِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ فَوَائِدِ مَا يُتَابُ مِنْهُ أَنَّهُ يُكَمِّلُ عُبُودِيَّةَ الْعَبْدِ وَيَزِيدُهُ خَوْفًا وَخُضُوعًا؛ فَيَرْفَعُ اللَّهُ بِذَلِكَ دَرَجَتَهُ، وَهَذَا الِامْتِنَاعُ مِمَّا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ أَنْ تَصِيرَ الشَّفَاعَةُ لِمَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ[3].

الفوائد:

١- أن من طلب من كبير أمرًا مُهمًا أن يقدم بين يدي سؤاله وصف المسؤول بأحسن صفاته وأشرف مزاياه؛ ليكون ذلك أدعى لإجابته لسؤاله.

---

[1] رواه البخاري، بَابُ {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: ٣]، (٤٧١٢)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها رقم،(١٩٤).

[2] : فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر: ١١/ ٤٤١.

[3] منهاج السنة النبوية، لابن تيمية: ٢/ ٤٢٤.

٢- وفيه أن المسؤول إذا لم يقدر على تحصيل ما سئل؛ يعتذر بما يقبل منه، ويدل على من يظن أنه يكمل في القيام بذلك فالدال على الخير كفاعله وأنه يثني على المدلول عليه بأوصافه المقتضية لأهليته ويكون أدعى لقبول عذره في الامتناع.

٣- وفيه أن الناس يوم القيامة يستصحبون حالهم في الدنيا من التوسل إلى الله تعالى في حوائجهم بأنبيائهم، والباعث على ذلك الإلهام.

٤- شِدَّةُ هَولِ الموقِفِ يومَ القِيامةِ.

٥- إثباتُ صِفةِ الغَضبِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي علَى ما يَليقُ به سُبحانَه.

٦- إثباتُ عَرْشِ الرَّحمنِ الَّذي استوَى عليه جَلَّ جلالُه استواءً يَليقُ بجَلالِه، وهو أعْلَى المَخلوقاتِ وأكبرُها وأعظَمُها.

الحديث الأول

عَنْ أَبِي نُجَيْدٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أُمَّتِي كَالْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»[1].

شرح الحديث:

جَعَل اللهُ الخيرَ في الأمَّةِ الإسلاميَّةِ إلى آخِرِ الزَّمانِ؛ فهي أمَّةُ الخيرِ والهُدى والرَّشادِ، حاملةُ لِواءِ الحقِّ، معَها الهدى والنُّورُ تَسيرُ به في ظُلماتِ الكفرِ والشِّركِ، فتُضيءُ به الظُّلماتِ، وتُزيلُ به الغِشاوةَ مِن الأعيُنِ الضَّالَّةِ.

وفي هذا الحديثِ: يقولُ الرَّسولُ ﷺ: "مَثَلُ أمَّتي مَثلُ المطَرِ"، أي: في نفْعِه، ثمَّ أوضَح ذلك "لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ"، أي: أنفَعُ، "أم آخِرُه.

أراد النَّبيُّ ﷺ أن يَصِفَ الأمَّةَ كلَّها بالخيرِ؛ فكأنَّها للنَّاظِرِ إليها نسيجٌ واحدٌ لا يَرى خِلافًا ظاهِرًا في أوَّلِها وآخِرِها؛ لِكَثرةِ الخيرِ في جميعِ طبَقاتِها، فكأنَّها سِلسلةٌ متَّصِلةٌ، مع اختِصاصِ كلِّ طبقةٍ بخاصيَّةٍ وفضيلةٍ تُوجِبُ خيريَّتَها، كما أنَّ كلَّ نَوْبةٍ مِن نُوَبِ المطرِ لها فائدةٌ في النُّشوءِ والنَّماءِ لا يُمكِنُ إنكارُها؛ فإنَّ الأوَّلين آمَنوا وشاهَدوا مِن المعجزاتِ، وتلَقَّوا دَعوةَ الرَّسولِ بالإجابةِ والإيمانِ، والآخِرين آمَنوا بالغَيبِ؛ لِمَا تَواتَر عِندَهم مِن الآياتِ، واتَّبعوا مَن قَبلَهم بإحسانٍ، وكما أنَّ المتقدِّمين اجتهَدوا في التَّأسيسِ والتَّمهيدِ، فالمتأخِّرون بذَلوا وُسْعَهم في التَّلخيصِ والتَّجريدِ، وصرَفوا عُمرَهم في التَّقديرِ والتَّأكيدِ؛ فكلٌّ مغفورٌ له، وسَعيُهم مشكورٌ، وأجرُهم موفورٌ.

وجه التشبيه بالمطر:

وجه شبههم بالمَطَر: لأن المطر يُنْبتُ الزرعَ في الأول، ويُنْمِيه في الثاني، ولا يُدْرى أنَّ نفعه في الأول أكثرُ أم في الثاني؛ فكذلك إن القرن الأول مَهَّدوا قواعدَ الشريعة وأساسَها، والقرن الثاني حَفِظُوها، وشَهَّروها، وعَمِلوا بمضمونها إلى قيام الساعة، فلا يُدرى - أيضًا - أن نفعَ القرنِ الأول في تمهيدهم أصلَ الشريعة أكثر، أم نفع القرن الثاني في حفظها والعمل بها؟ بل النفعُ موجودٌ في كليهما، من حيث إن أصلَ النفعِ في القرنين مشترَكٌ، وهو دوام توفيقِهما للعمل بمقتضى الشرع.

فإذا تقرَّر هذا، فاعرِفْ أن فضيلةَ القرن الأول من أمته على القرن الثاني منهم لا بكثرةِ العمل، بل لأنهم صَحِبوا النبيَّ - ﷺ -، وصادفُوا زمانَ الوحي، ولأنهم ثبتَتْ فضيلَتُهم على القرن الثاني بدلائل كثيرةٍ من الآيات والأخبار[2].

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط،(٣٦٦٠)، قال الألباني: حديث صحيح، برقم (٢٢٨٦)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها.

[2] المفاتيح في شرح المصابيح، للمظهري: ٦/ ٣٦٧.

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِن أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غرته فَلْيفْعَل»[1].

الشرح:

جَعَل اللهُ تعالَى للمُؤمنِينَ سِماتٍ وصِفاتٍ تُميِّزُهم عن غَيرِهِمْ في الآخِرةِ، وبها يَعرِفُ النبيُّ ﷺ أتْباعَه يَومَ القِيامةِ، كعَلاماتِ الإيمانِ والإسلامِ، ومِثلِ أثَرِ الوُضوءِ الذي يكونُ نُورًا ظاهرًا على أعضاءِ الوُضوءِ.

(إن أمتي) المؤمنين (يدعون) بضم أوّله وفتح ثالثه (يوم القيامة) على رؤوس الأشهاد حال كونهم (غرًّا) بضم الغين المعجمة وتشديد الراء جمع أغر أي ذو غرة وهي بياض في الجبهة، والمراد به النور يكون في وجوههم وحال كونهم (محجلين) من التحجيل وهو بياض في اليدين والرجلين، والمراد به النور أيضًا أي يدعون إلى يوم القيامة وهم بهذه الصفة بسبب آثار الوضوء.

وخصّها بالذكر؛ لأن محلها أشرف أعضاء الوضوء، وأوّل ما يقع عليه النظر من الإنسان.

قال العلماء:

المراد بالأمة في هذا الحديث: أمة الإجابة بقسميها:

- أمة الطاعة وهم: من أسلم وأطاع.
- وإلى أمة المعصية وهم: من أسلم وعصى.

وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أن فيه دلالة على استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، والمراد بإطالة الغرة عند العلماء غسل ما فوق الواجب .

ومنها: أن فيه دلالة على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة وهذه المسألة فيها ثلاثة أقوال للعلماء:

الأول: أنه من خصائص هذه الأمة، وبهذا القول جزم الحليمي في منهاجه، واستدل على ذلك بهذا الحديث.

الثاني: أنه ليس من خصائص هذه الأمة، بل كان مشروعاً في سائر الأمم، والذي اختصت به هذه الأمة الغرة والتحجيل، ورجح هذا القول شيخ الإسلام ابن حجر وقال أنه الظاهر قال: ويؤيده ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: «لكم سيما -أي علامة- ليست لأحد غيركم، تردون علي غراً محجلين من أثر الوضوء» .

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ فَضْلِ الوُضُوءِ، وَالغُرُّ المُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، (١٣٦)، ورواه مسلم في الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل رقم،(٢٤٦).

الثالث: أنه من خصائص هذه الأمة ولم يشاركها فيه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا القول لهذه الأمة شرف عظيم حيث استووا مع الأنبياء في هذه الخصوصية وامتازوا عنهم بالغرة والتحجيل .

ومنها: أن فيه دلالة على استحباب المحافظة على الوضوء وسننه المشروعة.

ومنها: أن فيه دلالة على ما أعد الله من الفضل والكرامة لأهل الوضوء يوم القيامة.

ومنها: أن فيه دلالة على كمال فضل نبينا - ﷺ - أطلعه الله تعالى على أمور من المغيبات مستقبلة من أمور الآخرة، وما يقع فيها لم يطلع عليه نبياً غيره؛ فأخبر بها في الدنيا أمته، وستقع كما أخبر فإنه صادق مصدوق، لاينطق عن الهوى.

ومنها: أن المؤمن يكسى في القيامة نورًا من أثر السجود، ونورًا من أثر الوضوء نور على نور فمن كان أكثر سجودًا أو أكثر وضوءًا في الدنيا؛ كان وجهه أعظم ضياء وأشد إشراقًا من غيره؛ فيكونون فيه على مراتب من عظم النور، والأنوار لا تتزاحم، ألا ترى أنه لو أدخل سراج في بيت ملأه نورًا فإذا أدخل فيه آخر ثم آخر؛ امتلأ بالنور من غير أن يزاحم الثاني الأول، ولا الثالث الثاني وهكذا.

الحديث الثالث

عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "[1].

الشرح:

كان النَّبيُّ ﷺ يُبشِّرُ أصْحابَه بالفُتُوحاتِ؛ ليُثبِّتَ قُلُوبَهم، ودَليلًا على صِدقِ رِسالتِه.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ عن بَعضِ ما أنْعَمَ اللهُ سُبحانَه وتَعالَى عَليه وعَلى أُمَّتِه، وعن سَعةِ انتِشارِها في الأرضِ.

فقال: " إن الله زوى لى الأرض ".

" زويت لى الأرض ": أى جمعت، يقال: انزوى القوم وتدانوا وتضاموا.

هذا الحديث علم من أعلام نبوته ﷺ لظهوره كما قال، وأن مُلْك أمته اتسع في المشارق والمغارب كما أخبر من أقصى بحر طنجة، ومنتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد الهند والسند والصغد [2]، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال الذى لم يذكر - ﷺ - أنه أريه وأن ملك أمته سيبلغه.

وقوله: " لا يهلكها الله بعامة ":

ويعني بالسنة: الجدب العام الذي يكون به الهلاك العام. ويسمى الجدب والقحط: سنة.

أى بشدة تجتاحهم وتعم جميعهم بالهلاك.

وقوله: " تستبيح بيضتهم ": أي جماعتهم وأصلهم، وهو مأخوذ من بيضة الطائر لتحصينها ما فيها، واجتماعها عليه. والبيضة أيضاً: العز. والبيضة أيضاً: الملك.

(قوله: حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا) ظاهر (حتى): الغاية، فيقتضي ظاهر هذا الكلام: أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم، إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض. وحاصل هذا أنه إذا كان من المسلمين ذلك تفرقت جماعتهم، واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو، فقويت شوكة العدو واستولى.

---

[1] رواه مسلم: بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ،(٢٨٨٩).

[2] هي قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى. انظر: مراصد الاطلاع ٢/ ٨٤٢.

قوله: (وســألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها) يعني: ألا يهلك جميعهم بطوفان كطوفان نوح - عليه السلام - حتى يغرق جميعهم.

فوائد من الحديث:

١. بيان معجزة ظاهرة للنبيّ - ﷺ -، حيث أخبر بما سيكون بعده، فوقع كما أخبر به - ﷺ -.

٢. بيان عظمة منزلة النبيّ - ﷺ - عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حيث يكرمه بإعطاء ما سأله في أمته من ظهور عدوّهم عليهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع أهل الدنيا كلهم، وهذا من عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة، الأمة المرحومة.

٣. بيان عظمة هذا الدين، وأنه يملأ الأرض كلّها.

٤. **لله تعالى في خلقه قضاءين: مبرمًا ومعلقًا:**

- **أما القضاء المعلّق:** فهو عبارة عما قدّره في الأزل معلّقًا بفعل، كما قال: إن فَعَل الشيء الفلانيّ كان كذا وكذا، وإن لَمْ يفعله فلا يكون كذا وكذا، من قبيل ما يتطرق إليه المحو والإثبات، كما قال الله تعالى في محكم كتابه: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ}[الرعد: ٣٩].

٥. **وأما القضاء المبرم:** فهو عبارة عما قدّره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الأزل من غير أن يعلقه بفعل، فهو في الوقوع نافذ غاية النفاذ، بحيث لا يتغير بحال، ولا يتوقف على المقضيّ عليه، ولا المقضيّ له؛ لأنه من عِلمه بما كان وما يكون، وخلاف معلومه مستحيل قطعًا، وهذا من قبيل ما لا يتطرق إليه المحو والإثبات، قال تعالى: {لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ}[الرعد: ٤١]، فقوله: "إذا قضيت قضاء فلا يردّ" من القبيل الثاني، ولذلك لَمْ يُجَب إليه، وأن الأنبياء - عَلَيْهِم السَّلَامْ مستجابو الدعوة إلَّا في مثل هذا.

الحديث الرابع

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَرَآ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي، ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: " يَا أُبَيُّ أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ " [1].

الشرح:

كان النَّبيُّ ﷺ يُعلِّمُ أصحابَه القُرآنَ حتَّى إتقانِه، وكان يَقرَؤُه عليهم بالقِراءاتِ والأوْجُهِ الَّتي تُوافِقُ لَهَجاتِ عِدَّةً، كُلُّها عَربيَّةٌ، تَخفيفًا وتَيسيرًا وتَسهيلًا على المُسلِمينَ.

وفي هذا الحديثِ يَروي أُبَيُّ بنُ كعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه كان جالسًا في المسجدِ النَّبويِّ، ولم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ حاضرًا حينئذٍ، وكان أُبَيٌّ رَضِيَ اللهُ عنه مِن حفَظةِ كتابِ اللهِ تعالَى، فدخَل رجلٌ يُصلِّي، فسَمِعه أُبَيٌّ رَضِيَ اللهُ عنه يَقرأُ القرآنَ بقِراءةٍ أنكَرَها عليه، أي: لم يكُنْ أُبَيٌّ رَضِيَ اللهُ عنه يَعرِفُها، ولم يَسبِقْ أنْ سَمِعها مِن رسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ دخَل رجُلٌ آخَرُ فقَرَأ قِراءةً مُختلِفةً عن قِراءةِ الرَّجلِ الأوَّلِ، فلمَّا انتَهَوا كلُّهم مِن الصَّلاةِ دَخَلوا جميعًا على النَّبيِّ ﷺ في حُجرةٍ مِن حُجراتِه، فقال أُبَيٌّ رَضِيَ اللهُ عنه للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ هذا الرَّجلَ قَرَأ قِراءةً أنْكَرتُها عليه، حيث خالَفَت قِراءتُه قِراءتي، ودخَل رجُلٌ آخَرُ، فقَرأ قِراءةً غيرَ قِراءةِ الأوَّلِ، فأمَرَهما رسولُ الله ﷺ بالقراءةِ حتَّى يَسمَعَ ويَتأكَّدَ مِن كونِ قِراءتِهما صَحيحةً أو خطأً، فقَرَأ الرَّجلانِ، فحسَّن قِراءتَهما وأخبَرَ أنَّ كِلاهُما مُحسِنٌ، أو قال لكلِّ واحدٍ منهما: أحسَنْتَ، فلمَّا سَمِع أُبَيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه تَحسينَ النَّبيِّ ﷺ لقِراءتِهما خَطَر في قلْبِه مِن التَّكذيبِ للنَّبيِّ ﷺ واعتَرَتْه الحَيرةُ والدَّهشةُ، ما لم يَقدِرْ على وصْفِه، ولم يَعهَدْ بمِثلِه في الجاهليَّةِ حين كان على الضَّلالةِ والكفْرِ الَّتي هي أَولى بهذا النَّوعِ مِن التَّكذيبِ، والجاهليَّةُ هي: المدَّةُ الَّتي كان النَّاسُ فيها على الشِّركِ قبْلَ مَبعَثِ النَّبيِّ ﷺ، وسُمِّيَت بها لكَثْرةِ جَهالاتِهم.

فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ ما حَصَل لأُبَيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه مِن وَسوسةِ الشَّيطانِ ونَزْغتِه، ضَرَب ﷺ بيَدِه الشَّريفةِ في صَدرِه تَثبيتًا له، فجرَى وسال عرَقُ أُبَيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه مِن جَميعِ بدَنِه، وكأنَّما يَنظُرُ

---

[1] رواه مسلم: بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ وَبَيَانِ مَعْنَاهُ،(٨٢٠).

إلى اللهِ »فَرَقًا»، أي: خوْفًا وخَجَلًا ممَّا أصابَه مِن وَسوسةِ الشَّيطانِ، وهذا يدُلُّ على أنَّها كانت نَزْغةً مِن الشَّيطانِ، ثمَّ زالت في الحالِ حِين ضرَبَ النَّبيُّ ﷺ بيَدِه في صَدرِه، ففاضَ عرَقُه.

وهنا أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أُبَيًّا -تَسكينًا له وتَبيينًا- أنَّ اللهَ تعالَى أوْحى إليه أنْ يَقرَأَ القُرْآنَ على حرْفٍ، أي: على وجْهٍ واحدٍ، »فردَدْتُ إليه»، أي: إلى اللهِ تعالَى بواسطةِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، وهو المَلَكُ الموكَّلُ بالوحْيِ، «أنْ هوِّنْ»، أي: طلَبَ منه سُبحانه أنْ يُسهِّلَ ويُيسِّرَ قِراءةَ القرآنِ على أُمَّةِ الإسلامِ، فالنَّبيُّ يُراجِعُ ربَّه عزَّوجلَّ في التَّخفيفِ على أُمَّتِه بمِثلِ ما جاء في التَّخفيفِ في الصَّلاةِ، فردَّ اللهُ سُبحانه إلى نَبيِّه ﷺ في المرَّةِ الثَّانيةِ: «اقرَأْه على حَرفينِ»، وفي المرَّةِ الثَّالثةِ هوَّن اللهُ على الأُمَّةِ بقِراءتِه على سَبعةِ أحرُفٍ، والمعنى: أنَّ القرآن نزَلَ بسَبعةِ أوجُهٍ، أو سَبْعِ لَهَجاتٍ، والمرادُ منها التَّسهيلُ والتَّيسيرُ، وقيل: أُنزِلَ القرآنُ أوَّلًا بلِسانِ قُريشٍ ومَن جاورَهم مِن العربِ الفُصحاءِ، ثُمَّ أُبيحَ للعربِ أنْ يَقرؤوه بلُغاتِهم الَّتي جرَتْ عادتُهم باستعمالِها على اختِلافِهم في الألفاظِ والإعرابِ، ولم يُكلَّفْ أحدٌ منهم الانتقالَ مِن لُغتِه إلى لُغةٍ أُخرى للمَشقَّةِ، ولِمَا كان فيهم مِن الحَمِيَّةِ، ولطلَبِ تَسهيلِ فَهْمِ المرادِ، وهذه الإباحةُ المذكورةُ لم تقَعْ بالتَّشهِّي بحيثُ يُغيِّرُ كلُّ أحدٍ الكلمةَ بمُرادفِها في لُغتِه، بلِ المُراعَى في ذلك السَّماعُ مِن النَّبيِّ ﷺ.

ثمَّ قال رَبُّ العزَّةِ لنَبيِّه ﷺ: »لك بكلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَها»، أي: لك في كلِّ رَجعةٍ تَسألُ فيها التَّيسيرَ والتَّسهيلَ على أُمَّتِكَ، وردَدْتُ عليك فيها، «مَسألة»، أي: دَعوة مُستَجابة، »تَسألُنِيها»، أي: يَنْبغي لك أنْ تَسألَها، و أنَّك لا تُخَيَّبُ أو تُرَدُّ فيها. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهمَّ اغفِرْ لأمَّتي، اللَّهمَّ اغفِرْ لأمَّتي» مرَّتينِ، وأخَّر ﷺ المسألةَ الثَّالثةَ إلى يومِ القيامة، وهي الشَّفاعةُ الكبرى، حيث يَحتاجُ إلى شَفاعتِه الخَلقُ كلُّهم حِين يقولونَ: نَفْسي، نفْسي، حتَّى نَبيُّ اللهِ إبراهيمُ ﷺ.

فوائد من الحديث:

١. بيان أن القرآن أُنزل على سبـ ـة أحرف.

٢. بيان رأفة اللَّه عزَّ وجلَّ بهذه الأمة بسبب نبيّها - ﷺ - حيث وسّع عليها أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف.

٣. شدّة عناية اللَّه عزَّ وجلَّ بحبيبه - ﷺ - حيث أعطاه بكلّ ردّ دعوة مستجابة.

٤. بيان أنه - ﷺ - طلب من اللَّه تعالى لأمته السهولة والتيسير في القراءات ثلاث مرّات، فأسعفه اللَّه تعالى، وأنجح مطلوبه، ولم يكتف بذلك، بل أمره بأن يزيد على المسألة بما يسهّل عليهم في الآخرة؛ ليجمع لهم التيسير والتسهيل في الدارين، فاللَّه تعالى أرأف، وأرحم بهم.

٥. بيان ما كان عليه النبيّ - ﷺ - من شدّة رأفته بأمته، حيث يدّخر لهم دعواته التي وعده اللَّه بإجابتها إلى يوم شديد الهول، فما أشدّ رأفته، ورحمته، فهو - ﷺ كما نعته اللَّه عزَّ وجلَّ بقوله: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

٦. بيان معجزة للنبيّ - ﷺ - حيث أخرج الشيطان عن قلب أبيّ -رضي اللَّه عنه- بضرب صدره.

٧. بيان كرامة أُبيّ -رضي اللَّه عنه- حيث لم يتسلّط عليه الشيطان، فيغويه كما أغوى كثيرًا ممن كتب اللَّه عليهم الشَّقاء بالتمادي على التكذيب، بل ألهمه اللَّه تعالى التوبة بضربه - ﷺ - في صدره، ودعوته له.

قال أبو العباس القرطبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هذا الذي وقع لأُبيّ -رضي اللَّه عنه- نَزْغة من الشيطان؛ ليشوّش عليه حاله، ويُكدّر عليه وقته، فإنه عظُمَ عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيمًا في نفسه، وإلا فأَيُّ شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، لكن لما تولَّى اللَّه تعالى بكفايتهم أمرَ الشيطان لم يؤثّر تزيينه وتسويله أثرًا يَركَنُون إليه، ولا يدومون عليه، وإنما كان ذلك امتحانًا لسرائرهم؛ ليُبرز للوجود ما عَلِمَه اللَّه تعالى من ضمائرهم، ولـ{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١]، وإلا فانظر مآل هذا الواقع ماذا كان؟ ، فإنه لَمّا رأى النبيّ - ﷺ - ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضرب في صدره، فأعقب ذلك بأن شرَحَ اللَّهُ صدره، وتنوّر باطنه، حتى آل له الكشف والشرح إلى حالة المعاينة، فلما ظهر له قُبْح ذلك الخاطر خاف من اللَّه تعالى، وسببه أنه قد حصَلَ منه التفات إلى ذلك الخاطر، وفَيْضُهُ بالْعَرَق إنما كان استحياءً من اللَّه تعالى، قال: وهذا الخاطر الذي خطر لأُبيّ -رضي اللَّه عنه- هو من قبيل ما قد أخبر النبيّ - ﷺ - أنه لا يؤاخذ به، بل هو من قبيل ما قال فيه: "ذلك محض الإيمان" [1].

[1] رواه مسلم برقم (١٣٣).

الحديث الخامس

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: " يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ "[1].

هذا الحديث مو افق لقول الله عزوجل: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}[الضحى:٥].

قال بعض العلماء: واللهِ ما يرضى محمد ﷺ وواحد من أمته في النار.

الشرح:

كان النَّبيُّ ﷺ رَؤوفًا رَحيمًا، كانَ كَثيرًا ما يَدعو للأُمَّةِ ألَّا تُهلَكَ، كما هَلَكتِ الأُمَمُ السَّابقةُ، وهذا الحديثُ يُبيِّنُ تَضرُّعَ النَّبيِّ ﷺ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واجتهادَه في الدُّعاءِ لأُمَّتِه.

فوائد من الحديث:

١- بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم.

٢- استحباب رفع اليدين في الدعاء.

٣- البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفا بما وعدها الله تعالى بقوله سنرضيك في أمتك ولا نسوءك **وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها.**

٤- بيان عظم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ .

قال أبو العباس القرطبيّ رحمه الله: معنى هاتين الآتين قال إبراهيم {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌرَّحِيم}[إبراهيم:٣٦]، وَقَالَ عِيسَى: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم}[المائدة:١١٨]: أن كلّ واحد من إبراهيم وعيسى - عليهما السلام - لم يَجزما في الدعاء لعُصاة أممهما، ولم يُجهدا أنفسهما في ذلك، ولم يكن عندهما من فرط الشفقة ما كان عند نبيّنا - ﷺ - ، ألا ترى أنهما في الآيتين كأنهما تبرّءا من عصاة أممهما، ولمّا فَهِمَ نبيّنا - ﷺ - ذلك؛ انبعث بحكم ما يجده من شدّة شفقته ورأفته وكثرة حرصه على نجاة أمته، وبحكم ما وهبه الله تعالى من رِفْعَة مقامه على غيره جازمًا في الدعاء لأمته، مجتهدًا فيه لهم، متضرّعًا، باكيًا، مُلِحًّا، يقول: "أمتي أمتي"، فِعْلَ المحبّ المستهتِر بمحبوبه، الحريص على ما يُرضيه، الشفيق عليه، اللطيف به، ثم لم يزل كذلك حتى أجابه الله تعالى فيهم،

---

[1] رواه مسلم: بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ، وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ برقم (٢٠٢).

وبشّــره بما بشّــره من مآل حالهم، حيث قال الله تعالى: "إنا ســنُرضــيك في أمتك"، وهو معنى قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥][١].

الحكمة في إرسال جبريل عليه السلام لسؤاله ﷺ ؟

١- إظهار شرف النبي ﷺ ، وأنه بالمحل الأعلى؛ فيسترضى ويكرم بما يرضيه،

٢- وليعلم جبريل تمكن نبينا في مقام الفتوة[٢]، وغاية اعتنائه بأمته - ﷺ -.

---

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ١/ ٤٥٥.

[٢] الفتوة: حُسْن الخُلُق وبذل المعروف.

الحديث السادس

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»[1].

الشرح:

للصَّلاةِ والسَّلامِ على رسولِ اللهِ ﷺ فضلٌ عَظيمٌ، ومِن ذلكَ أنَّه يصِلُ سَلامُ مَن سلَّم عليه إلى النَّبيِّ ﷺ وهو في قبرِه. وفي هذا الحَديثِ يقولُ النَّبيُّ ﷺ: "إنَّ للهِ ملائكةً"، أي: جماعةً مِن الملائكةِ مِن عمَلِهم ووظيفتِهم كَونُهم "سيَّاحِينَ في الأرضِ"، أي: يَطوفونَ فيها ويمشونَ في طُرقِها، "يُبلِّغوني مِن أُمَّتي السَّلامَ"، أي: يُخبِرونَ النَّبيَّ ﷺ وهو في بَرْزَخِه بمَنْ يُصلِّي ويُسلِّمُ عليه ﷺ ، وإنْ بعُدَ مكانُه، وتباعَد زمانُه.

فوائد من الحديث:

١. الحثُّ والتَّرغيبُ في كَثرةِ الصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ ﷺ.

٢. بيانُ تعظيمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى لنبيِّه ﷺ ، وإجلالِ منزلتِه الرَّفيعةِ.

٣. بيانُ مُعجزةٍ مِن مُعجزاتِه ﷺ.

٤. كفى بِالْعَبدِ نبْلًا أَن يذكر اسْمه بِالْخَيرِ بَين يَدي رَسُول الله ﷺ

مسألة في رد الرسول ﷺ السلام على الذي سلّم عليه:

قال الخفاجي – رحمه الله - أن الأنبياء والشهداء أحياء، وحياة الأنبياء أقوى، وإذا لم يسلط عليهم الأرض؛ فهم كالنائمين، والنائم لا يسمع ولا ينطق حتى ينتبه كما قال الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[الزمر:٤٢]؛ فالمراد بالرد الإرسال الذي في الآية، وحينئذ فمعناه أنه إذا سمع الصلاة والسلام بواسطة أو بدونها؛ تيقظ ورد لا أن روحه تقبض قبض الممات ثم ينفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها؛ لأن روحه مجردة نورانية، وهذا لمن زاره، ومن بعد تبلغه الملائكة سلامه[2].

---

[1] رواه ابن حبان، باب: ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ سَلَامَ الْمُسَلِّمِ عَلَى الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْلُغُ إِيَّاهُ ذَلِكَ فِي قَبْرِهِ،(٩١٤). قال الألباني صحيح - «المشكاة» (٥٢٤)..

[2] عون المعبود شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي: ٦/ ٢١.

الحديث السابع

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»[1].

الشرح:

ضَرَبَ اللهُ تعالَى الأمثالَ للنَّاسِ لعلَّهم يَعقِلُون ويَتفَهَّمون ما أُنزِلَ إليهم، وكذلك فَعَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ بوَحيٍ مِن رَبِّه، فضَرَبَ الأمثالَ لأُمَّتِه تَقريبًا للمَعاني وتَوضيحًا للمَقْصودِ.

وفي هذا الحديثِ يَضرِبُ النَّبيُّ ﷺ مَثَلًا لشِدَّةِ حِرصِه على هِدايةِ النَّاسِ، وشَفَقتِه ورَحمتِه ﷺ بهمْ، وشِدَّةِ عِنادِ النَّاسِ و اتِّباعِهم لشَهواتِهم التي فيها هَلاكُهم.

و(الْفَرَاشُ): هو الطير الذي يتساقط في النار وفي السراج.

(بِحُجَزِكُمْ) الحجز جمع حجزة وهي مقعد الإزار والسراويل.

(تَقَحَّمُونَ) التقحم هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبيت.

بلاغة التشبيه:

شَبَّه ﷺ تساقط أهل المعاصي في نار الآخرة بتساقط الفَرَاش في نار الدنيا، وهذا التشبيه وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان، بإكباب الفراش على التهافت في النار، ولكن جهل الآدميّ أشدّ من جهل الفراش؛ لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها في الحال، والآدمي يبقي في النار مدة طويلة، أو أبداً.

مقصود الحديث:

أنه - ﷺ – شبّه المخالفين له بالفَراش، وتساقطهم في نار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا، مع حرصهم على الوقوع في ذلك، ومَنْعه إياهم، والجامع بينهما اتّباع الهوى، وضعف التمييز، وحِرْص كل من الطائفتين على هلاك نفسه.

والمقصودُ أن الخلق لا يأتون ما يجرّهم إلى النار على قصد الهلكة، وإنما يأتونه على قصد المنفعة، واتباع الشهوة، كما أن الفراش يقتحم النار، لا لِيَهلك فيها، بل لِمَا يُعجبه من الضياء، وقد قيل: إنها لا تُبصر بحال، وهو بعيد، وإنما قيل: إنها تكون في ظُلمة، فإذا رأت الضياء اعتقدت أنها كوّة يظهر منها النور، فتقصده لأجل ذلك، فتحترق، وهي لا تشعر، وقيل: إن ذلك لِضعف بصرها، فتظنّ أنها في بيت مظلم، وأن السراج مثلاً كوّة، فترمي بنفسها إليه، وهي من شدّة طيرانها تجاوزه، فتقع في الظُّلمة، فترجع إلى أن تحترق، وقيل: إنها تتضرر بشدة النور، فتقصد إطفاءه، فلشدة جهلها، تورّط نفسها فيما لا قدرة لها عليه[2].

---

[1] رواه مسلم: شَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، (٢٢٨٤).

[2] فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٤٦٤.

في هذا الحديث من الفقه:

أن رسـول الله - ﷺ - سـمى أعمال النار نارًا؛ لأنها تؤدي إليها، فهو كقوله عز وجل: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا} فهو - ﷺ - بشرعه ووصاياه يمسك بالحجز عن التهافت في أعمال النار المؤدية إلى النار، والآدميون يتهافتون عليها تهافت الفراش على النار اتباعًا لطباعهم التي تؤدي من ذلك إلى ما يتلفها، فلا يعتبر منها الذي قد قارن الوقوع؛ بمن بين يديه ممن أهلكه تهافته؛ لأن ذلك كله من أحوال الإحساس دون العقول.

وهذا مثل لاجتهاد نبينا ـ ﷺ ـ في نجاتنا، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا، ولجهلنا بقدر ذلك، وغلبة شهواتنا علينا، وظفر عدوِّنا اللعين بنا، حتى صرنا أحقر من الفراش والجنادب، وأذل من الطين اللازِّب[1].

فوائد من الحديث:

١. بيان ما كان عليه النبيّ - ﷺ - من الرأفة، والرحمة، والحرص على نجاة الأمة، كما قال تعالى: {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

٢. فيه إشارةً إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير؛ أن جِبِلّته مائلة إلى الحظ العاجل، دون الحظ الأجل.

٣. ضَرْبُ المَثَلِ الذي يُبرِزُ خَفيَّاتِ المعاني، ويَرفَعُ الأستارَ عن الحقائقِ.

٤. أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ سَمَّى المعاصيَ نارًا؛ لأنَّها تُؤدِّي إليها.

---

[1] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٦/ ٨٧.

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ مَسْــعُودٍ، أَنَّ رَجُلًا أَصَــابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: {أَقِمِ الصَّــلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِوَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الحَسَــنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّــيِّئَاتِ} [هود: ١١٤] فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»[1].

الشرح:

مِنَ الوَســائِلِ التي تُســاعِدُ الإنســانَ على التَّوبةِ: أنْ يَحرِصَ على مُضــاعَفةِ الأعمالِ الصَّــالِحةِ وتَكثيرِها؛ حتى تَغلِبَ على حَياتِه وقَلبِه، ومِن هذه الوَسائِلِ التي تُكفِّرُ السَّيِّئاتِ الصَّلاةُ.

وفي هذا الحَديثِ:

يُخبِرُ عَبدُ اللهِ بنُ مَســعودٍ رَضــيَ اللهُ عنه أنَّ رَجُلًا قَبَّلَ امرأةً لا تَحِلُّ له، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبَرَه بما جَرَى، فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} [هود: ١١٤] ، أيْ: أقِمِ الصَّلاةَ المفروضةَ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه، وهي: صلاةُ الفجرِ والظُّهرِ والعصرِ، {وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ}، أيْ: وأقِمِ الصَّلاةَ أيضًا في ســاعاتٍ مِن الليلِ، وهي صــلاةُ المغربِ والعشــاءِ، {إِنَّ الْحَسَــنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّــيِّئَاتِ}: إنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها تُكفِّرُ صَغائرَ الذُّنوبِ، فسَأَلَ الرَّجُلُ النبيَّ ﷺ؛ فقال: يا رَسولَ اللهِ، هل الحُكمُ خاصٌّ بي وَحدي؟

فقالَ النبيُّ ﷺ: لِجَميعِ أُمَّتي كُلِّهم. وفي هذا تَأكيدٌ مِنَ النبيِّ ﷺ بَعدَ تَأكيدٍ؛ لِيَشــمَلَ هذا المَوجودينَ والمَعدومينَ، يَعني: هذا لهم، وأنتَ منهم.

وهذا التَّكفيرُ للذُّنوبِ خاصٌّ بالصَّغائِرِ، أمَّا الكَبائِرُ؛ فإنَّها تَحتاجُ إلى تَوبةٍ تامَّةٍ، بشُروطِها.

فوائد من الحديث:

١. بَيانُ مَدى رَحمةِ اللهِ بعِبادِه، وأنَّه يَقبَلُ التائِبينَ.

٢. بيان أن الحسـنات يكفّرن السـيئات؛ أي: صـغائر الذنوب، قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: هذا الذنب الذي أصابه ذلك الرجل، وسأل عنه النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت الآية بسببه، كان من الصغائر، وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الصلاة إنما تكفر الصغائر دون الكبائر، وكذلك الوضـوء، غيرَ أن الصـلاة تكفر أكثر مما يكفر الوضـوء، كما قال سـلمان الفارسـيّ -صـلى الله عليه وسـلم-: الوضـوء يكفر الجراحات الصـغار، والمشـي إلى المسجد يكفر أكثر، والصلاة تكفر أكثر من ذلك، الوضوء: هل يكفر الصغائر خاصة، أم يعم الذنوب كلها؟ والأكثرون على أن لا يكفر سـوى الصـغائر، وقد ذهب قوم إلى أنه يكفر الكبائر أيضًا[2].

٣. أنه يستفاد منه فيه عدم وجوب الحدّ في القبلة وشِبْهِها من المسّ ونحوه من الصغائر، وهو من اللمم المعفوّ عنه باجتناب الكبائر بنصّ القرآن.

---

[1] صحيح البخاري: بَابٌ: الصَّلاَةُ كَفَّارَةٌ، (٥٢٦)، وأخرجه مسلم في التوبة باب قوله تعالى {إن الحسنات} رقم، (٢٧٦٣).

[2] فتح الباري لابن رجب: ٤/ ١٥ - ١٦.

٤. بيان أن إقامة الصلوات الخمس تجري مجرى التوبة لمرتكب الصغائر.
٥. بيان أن باب التوبة مفتوح، والتوبة مقبولة.

الحديث التاسع

إماطة الأذى من أحسن أعمال الأمة

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- ، قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ، لَا تُدْفَنُ»[1].

الشرح:

في هذا الحديث يُبَيِّنُ النَّبيُّ ﷺ محاسِنَ الأعمالِ ومساوِئَها، فيقول: (عُرِضَتْ عَلَيَّ أعمالُ أُمَّتِي) يعني: بُلِّغْتُ عنها، وبُيِّنَتْ لي، والَّذي بيَّنَها له هو اللهُ عزَّوجلَّ؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى هو الَّذي يُحلِّل ويُحرِّم ويُوجِبُ، فعَرَضَ اللهُ عزَّوجلَّ على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ المحاسنَ والمساوئَ من أعمالِ الأُمَّة، فوَجَدَ النَّبيُّ ﷺ في محاسنِ أعمالِها الأذى يُماطُ، أي: يُزالُ عن الطَّريقِ، وهو كُلُّ ما يُؤذِي من شَوكٍ أو عَذِرَةٍ أو حَجَرٍ، ووجَدَ في مَساوئِ أعمالِها "النُّخاعةَ"، أي: البُزاقةَ الَّتي تَخرُجُ من أصلِ الفَمِ، والمرادُ بها إلقاؤُها، (تَكونُ في المسجِدِ) ظاهرةً لا تُدفَنُ، فالذَّمُّ لا يختصُّ بصاحبِ النُّخاعَةِ- وإنْ كان إثمُه أكثَرَ- بل يدخُلُ فيه هو وكُلُّ مَن رآها ولا يُزيلُها، فلم يَثبُتْ لها حُكمُ السَّيِّئَةِ بمجرَّدِ إيقاعِها في المسجِدِ، بل به وبتركِها غيرَ مدفونَةٍ.

فوائد من الحديث:

١- قال النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هذا ظاهره أن هذا القبح والذم لا يختص بصاحب النخاعة، بل يدخل فيه هو وكلُّ من رآها، ولا يزيلها بدفن، أو حَكّ، ونحوه.

٢- إماطةُ الأذى عن الطريق من جملة الحسنات، وإلقاءُ البزاق في المسجد من جملة السيئا؛ إذا لم "يدفن"؛ أي: لم يستر.

٣- بيان فضل الله تعالى على نبيّه -ﷺ- ، حيث يُطلعه على المغتبات من أحوال أمته، وغير ذلك، {وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}.

٤- البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها، وإنما تكون خطيئة لمن تفل فيه ولم يدفنه؛ لأنه يقذّر المسجد، ويتأذى به من تعلق به، أو رآه.

٥- لا يجوز أن يحتقر من البر شيء، ولا يستصغر من الإثم شيء وإن قل.

٦- أن الصحائف على ما يخفى فيها من الأعمال الثقال؛ فإنها لا يغادر منها لمثاقيل الذر.

الحكمة من عرضها على رسول الله ﷺ:

١- في الحديث إشارة إلى أنها لم تعرض على رسول الله - ﷺ - إلا وهي بسبيل أن يستغفر لأهلها منها، كما قال: (تعرض علي أعمال أمتي، فإن رأيت حسنًا شكرت الله، وإن رأيت سيئًا

[1] رواه مسلم: باب البزاق في المسجد خطيئة،(٥٥٣).

استغفرت الله)علم الله سبحانه وتعالى رحمة نبيه لأمته؛ فلا يعرض عليه سيئات أعمالهم إلا رفقًا بهم لعلمه أنه يستغفر لهم.

٢- ولم يعرض عليه إلا ليكون ذلك تبريرًا لشفاعاته المحبوبة ومسائله المطلوبة.

الحديث العاشر

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[1].

الشرح:

تَفضَّل اللهُ سُبحانَه على أُمَّةِ الإسلامِ بشَفاعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لهم يومَ القيامةِ، وقدْ جاءتِ الآثارُ الَّتي بلَغتْ بِمجْموعِها حَدَّ التواتُرِ بصِحَّةِ الشَّفاعةِ في الآخِرةِ. وفي هذا الحديثِ يَقولُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: "شَفاعَتي"، أي: يَقبلُ اللهُ عزَّوجلَّ مِنِّي الشَّفاعةَ في الآخِرةِ "لأَهلِ الكَبائرِ مِن أُمَّتي"، أي: مِن الذينَ قالُوا: لا إلهَ إلا اللهُ فلا يَدخلونَ بها النارَ، ومَنْ دخلَها فإنَّه سيخرُجُ بِتلكَ الشَّفاعةِ.

والكبيرة:

كلَّ ذنب أطلَقَ الشرعُ عليه أنَّهُ كبيرٌ، أو عظيمٌ، أو أخبَرَ بشدَّةِ العقابِ عليه، أو علَّق عليه حَدًّا، أو شَدَّدَ النكيرَ عليه وغلَّظه، وشَهِدَ بذلك كتابُ اللهِ أو سنةٌ أو إجماعٌ فهو كبيرة.

قال النووي: في حد الكبيرة أوجه أحدها: أنها المعصية الموجبة لحد، والثاني: أنها ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة، وهذا أكثر ما يوجد لهم، وهم إلى ترجيح الاول أميل، لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفصيل الكبائر.

الفوائد من الحديث:

قال القاضي عياض رحمه الله: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً، ووجوبها سمعاً لصريح قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه: ١٠٩]، وقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الانبياء: ٢٨] وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المسلمين، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنن عليها.

والشفاعة خمسة أقسام:

أولها: مختصة بنبينا - ﷺ -: وهي الإراحة من هول الموقف، وتعجيل الحساب.

الثانية: في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وهذه وردت أيضاً لنبينا - ﷺ -.

الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم نبينا - صلى الله عليه وسلم - ومن شاء الله تعالى.

الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين، فقد جاءت الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا - ﷺ - والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثم يخرج الله تعالى كل من قال: لا إله إلا الله كما جاء في الحديث فلا يبقى فيها إلا الكافرون.

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها.

---

[1] رواه الترمذي: بَابُ مَا جَاءَ فِي الشَّفَاعَةِ،()، قال الألباني: صحيح، انظر: صَحِيح الْجَامِع:(٣٧١٤).

وزاد ابن حجر سادسة :

الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة.

الحديث الحادي عشر

عن عَامِربْن سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّبِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا "[1].

وفي هذا وَرَد قولُه تَعالَى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُعَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام: ٦٥].

الشرح:

كانَ النَّبيُّ ﷺ حَريصًا على أُمَّتِه مُشفقًا عَليهم، فكثيرًا ما يَسألُ اللهَ لَهم ما يَنفعُهم في دُنياهُم ويُصلِحُ لَهم أمرَ آخرَتِهم.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُسعدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ «أقْبَلَ ذَاتَ يَومٍ مِنَ العَالِيَةِ» وهي قُرَى تَقَعُ شَرقَ المَدينَةِ جِهةَ نَجْدٍ، «حتَّى إذَا مَرَّبمَسجِدِ بَني مُعاويةَ» وهو ابنُ مالكِ بنِ عَوفٍ، وهُم جَماعةٌ منَ الأَنصارِ، ويقَعُ المسجدُ في شَمالَي البقيعِ على يَسارِ السَّالكِ إلى العريضِ، وهذا المسجدُ هو المعروفُ بمَسجدِ الإجابةِ؛ لِما وَقَع مِن إجابةِ اللهِ لدُعاءِ نَبيِّه ﷺ ، فدَخَل النَّبيُّ ﷺ هذا المسجدَ، فصلَّى فيهِ بأصحابِه رَضيَ اللهُ عنهم رَكعتينِ، وَدعا ربَّه في تلك الرَّكعتينِ دُعاءً طويلًا، ثُمَّ بعْدَ فَراغِه منَ الدُّعاءِ، أقبَلَ على مَن معه وذَكَرلهم ما كان مِن دُعائِهِ وأنَّه دعاهُ بثَلاثِ دَعواتٍ، فأجابَ اللهُ له ثِنتينِ مِن الثلاث، ولم يُجِبْه في الثَّالثةِ، وبَيَّن النَّبيُّ ﷺ هَذه الدَّعواتِ، فَقال: «سَألتُ رَبِّي أن لا يُهلِكَ أُمَّتي بالسَّنةِ»، أي: بالجَدبِ والقَحطِ والمَجاعةِ الَّتي تَستأصِلُهم وتُضعِفُهم، فأعطانيها واستَجابَ لي فيها.

والثَّانيةُ: «ألَّا يَهلِكَ أُمَّتي بالغَرقِ» يَعني: لا تَغرقُ الأُمَّة كلُّها كقومِ فِرعونَ في اليمِّ، وقومِ نوحٍ بالطُّوفانِ فأَعطانِيها، وفي حَديثِ التِّرمذيِّ عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّه ﷺ ، قال: «وسَألْتُه ألَّا يُسلِّطَ عليهم عَدوًّا مِن غَيرِهم، فأعْطانِيها» أي: لا يَكونَ هَلاكُهم بعَدوٍّ مِن الكفَّارِ يَستبيحُهم، فيَستأصِلُهم ويُضعِفُهم، والمرادُ بذلك ألَّا يَغلِبوا المسْلِمينَ غَلبةً تَستبيحُ بَيضةَ الإسلامِ، وتَستأصِلُ المسلِمينَ جميعًا.

والثَّالثةُ هيَ ألَّا يَجعلَ بأسَهُمْ بيْنَهم، أي: ألَّا يقَعَ بيْنَهم فُرقةٌ وقِتالٌ تُهلِكُهم وتُضعِفُهم، والبأسُ الحروبُ والفِتنُ، «فمَنعنِيها» لم يُجِبْه اللهُ عزَّوجلَّ في تلك الدَّعوةِ؛ لكونِها مُخالفةً لِقضائِهِ المُبْرَمِ ومَشيئتِه الَّتي لا يُسأَلُ عنها.

وفي الحديثِ: عَلامةٌ مِن عَلاماتِ نُبوَّتِه ﷺ.

---

[1] رواه مسلم: بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ،(٢٨٩٠).

الحديث الثاني عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ» [1].

الشرح:

تفَضَّلَ اللهُ سُبحانه على أُمَّةِ الإسلامِ بالفَضلِ العَظيمِ في شَرائعِ الدِّينِ، والتَّيسيرِ ومُضاعَفةِ الأَجْرِ، وغُفْرانِ الذُّنوبِ، والتَّجاوُزِ عن خطَأِ المسلِمِ في مَواضِعَ كَثيرةٍ، وهذا مِن فَضْلِه ورَحمتِه سُبحانَه. وفي هذا الحديثِ مَظهَرٌ مِن مَظاهرِ رَحمةِ اللهِ تَعالى بهذه الأُمَّةِ، حيثُ يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رفَعَ الحِسابَ والعِقابَ، فلم يُؤاخِذْ أفرادَ الأُمَّةِ بما حدَّثَ الواحدُ منهم به نفْسَه مِنَ الشَّرِ، مِن غيرِ إرادةٍ منه، فهذا مَعفوٌّ عنهُ، ولا يَترتَّبُ عليه إثمٌ ما دامَ لمْ يَعمَلْ بجَوارحِه هذا الشَّرَّ، أو يَتكلَّمْ به بلِسانِه، وهذا مِن فضْلِ اللهِ على أُمَّةِ الإسلامِ.

فوائد من الحديث:

١- بيان أن حديث النفس لا ينافي الإيمان.

٢- بيانُ عظيم قدر الأمة المحمّدية؛ لأجل نبيّها - ﷺ -؛ لقوله: "تجاوز لي".

٣- أن هذا خصوصيّة لهذه الأمة، لا يُشاركها فيه غيرها من الأمم، بل صرّح بعضهم بأنه كان الناسي كالعامد في الإثم، وأن ذلك من الإصر الذي كان على من قبلنا.

٤- أن من طلّق زوجته في نفسه لا يقع طلاقها.

٥- أنه حجة في أن الموسوس لا يقع طلاقه، والمعتوه، والمجنون أولى منه بذلك.

---

[1] رواه مسلم: بَابُ تَجَاوُزِ اللهِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَالْخَوَاطِرِ بِالْقَلْبِ، إِذَا لَمْ تَسْتَقِرَّ، (١٢٧).

الحديث الثالث عشر

عن أبي عَامِرٍ أَوْ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ، وَاللَّهِ مَا كَذَبَنِي: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي الفَقِيرَ - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا، فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ "[1].

الشرح:

بيَّن لنا النبيُّ ﷺ أمورَ ديننا، وأوضَحَ الحلالَ والحرامَ في الأقوالِ والأفعالِ، وبَيَّن أنَّه بمرورِ الزَّمانِ واقترابِ قيامِ السَّاعةِ، سيَخِفُّ الدِّينُ في قلوبِ النَّاسِ حتى يستَحِلُّون بعضَ ما حَرَّمه اللهُ.

وفي هذا الحديث:

يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ بأنَّه سَيَكونُ جَماعةٌ مِن أُمَّتِه يَستحِلُّونَ بعضَ المحرَّماتِ، والاستحلالُ هو أنْ يَفعَلَ الحرامَ بدَعْوى أنَّه حَلالٌ بالتأويلاتِ الفاسِدةِ، ولهذا قال: «من أمتي»، فجعَلَهم بعضَ أمَّتِه مع استحلالهم بالتأويلِ؛ لأنَّهم لو استحَلُّوها مع اعتقادِ أنَّ اللهَ ورسولَه حَرَّماها، لكانوا كُفَّارًا، وخرجوا عن أمَّتِه.

وأوَّلُ هذه المحَرَّماتِ هو الحِرُ، وهو الفَرْجُ، ويقصِدُ الزِّنا، قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢] .

و أيضًا يستحِلُّون الحريرَ، وهو حرامٌ على الذُّكورِ دونَ الإناثِ.

وكذا يَستحِلُّون الخمرَ، وهي كُلُّ ما يُسكِرُ ويُغَطِّي العَقلَ.

ويستحِلُّون أيضًا المعازفَ، وهي آلاتُ اللَّهوِ والموسيقا.

وقيل: مدارُ استحلالِ هذه المحَرَّماتِ وغَيرِها على تسميةِ الشَّيءِ باسمِ غيرِه، كمن تزوَّج امرأةً ليُحِلَّها لزَوجِها؛ فإنَّهم يُسَمُّونه في العَقدِ زَوجًا، وإنما هو المحلِّلُ الملعونُ، والتَّيسُ المستعارُ، واستحلالُ الخَمرِ بتسمِيَتِها بغيرِ اسمِها، فيقولون: مشروباتٌ رُوحانيَّةٌ، وغيرَ ذلك.

ثمَّ أنْبَأَ ﷺ عن أقوامٍ يَنزِلون إلى جَنْبِ عَلَمٍ، وهو الجبَلُ، يرُوحُ عليهم بسارحةٍ لهم، أي: يَسيرُ الرَّاعي بغَنَمٍ لهم، وهي السَّارحةُ في المراعي، وفي أثناءِ ذلك يَأتيهم الفقيرُ يَسألُهم الحاجةَ، فيَرُدُّونه ويقولون: ارجِعْ إلينا غدًا، وهم يقصِدون بذلك رَدَّه حتى لا يُعْطوه شيئًا، «فيُبيِّتُهم اللهُ»، أي: يأخُذُهم بالعذابِ وهم في وقتِ البَياتِ؛ وهو اللَّيلُ، ويضَعُ الجبَلَ، أي: يُوقِعُه، عليهم فيُهلِكُهم. ثمَّ قال: «ويَمسَخُ آخَرين قِردةً وخَنازيرَ إلى يومِ القيامةِ» أي: إلى مِثلِ صُوَرِها حقيقةً، كما وقَعَ لبعضِ الأُمَمِ السَّابقةِ، ولم يُبَيِّن في هذا الحَديثِ مكانَهم ولا ذُنوبَهم، وإنما أفاد أن المسْخَ يكونُ في آخِرِ الزَّمانِ عند نزولِ الفِتَنِ. وقيل: «ويَمسَخُ آخَرين» أي: يجعَلُ صُوَرَ آخَرينَ ممَّن لم يَهلِكْ من

---

[1] صحيح البخاري: بَابٌ: بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ يَسْتَحِلُّ الخَمْرَ وَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، (٥٥٩٠)

البياتِ المذكورِ «قِردةً وخَنازيرَ إلى يومِ القيامةِ»، وفي هذا حَضٌّ للمُسلِمِ على اجتنابِ المعاصي؛ كي لا يقَعَ في العذابِ ومَسْخِ الصُّوَرِ.

وفي الحَديثِ:

١. الحديث عَلامةٌ مِن عَلاماتِ النُّبوَّةِ.

٢. وفيه: أنَّ استحلالَ المعاصي -مِثلُ الزِّنا والحريرِ والخَمرِ والمعازفِ- من أكبرِ الكبائِرِ.

الحديث الرابع عشر

عن المُغِيرَة بْن شُــعْبَة، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: «لاَ يَزَالُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُاللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[1].

الشرح:

أُمَّةُ الإسلامِ شأنُها عَظيمٌ وخَطيرٌ؛ فإنَّها آخِرُ أُمَمِ الأنبياءِ في الدُّنيا، ونَبيُّها خاتَمُ الأنبياءِ، وقد أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً بَشيرًا ونَذيرًا، ودَعوتُه مُمتدَّةٌ إلى آخِرِ الزَّمانِ، ومن لَوازِمِ امتدادِ دَعوتِه ﷺ أن يَبقَى الحَقُّ قائمًا في الأمَّةِ لا يَضيعُ، وذلك من رَحمةِ اللهِ بالأمَّةِ من جِهةٍ، ومِن جِهةٍ أخرى لاستمرارِ قيامِ الحُجَّةِ على النَّاسِ. وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ أنَّه ســتَظَلُّ فِئَةٌ من أُمَّةِ الإســلامِ مُنتصِــرةً غالبةً، وهذه الفئةُ مُعانةٌ منَ اللهِ، مَنصــورةٌ على مَن خَذَلها وحارَبَها، والهَزيمَةُ والخِذلانُ عاقبةُ مَن حارَبَها أو عارَضَــها، وســيَظلُّون على هذا الحالِ إلى يومِ القيامةِ طائفةً بعدَ طائفةٍ، وهذا مِمَّا يدُلُّ على أنَّ الحقَّ لا يَنقطِعُ في أُمَّةِ الإسلامِ؛ فهناك مَن يَتوارَثُه جيلًا بعدَ جيلٍ.

قال النووي- رحمه الله- يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين: منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض[2].

وهذا هو الأولى جمعًا بين الأحاديث، فهذه الطَّائفةَ تكون مُتناثِرةً بينَ طَوائفِ الأُمَّةِ

وفي الحديثِ:

١- فيه عَلَمٌ من أعلامِ النُّبوَّةِ، حيثُ أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ فيه ببَعضِ ما سيَكونُ بعدَه في أُمَّتِه.

٢- وفيه: بَيانُ أنَّ الحقَّ لا يَنقطِعُ من الأُمَّةِ، بل هو مَوجودٌ إلى قيامِ السَّاعةِ.

---

[1] رواه البخاري، بَابُ سُؤَالِ المُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ(٣٦٤٠)، ورواه مسلم في الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة، رقم(١٩٢١).

[2] شرح النووي على مسلم: ١٣/ ٦٧.

الحديث الخامس عشر

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا، إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ»[1].

الشرح:

وضَعَ الإسلامُ دُستورًا للرَّاعي مع الرَّعيَّةِ، أساسُه الرِّفقُ بهم، والعفوُ ورَفعُ المشقَّةِ عنهم، والتَّيسيرُ عليهم لِبُلوغِ مَصالِحِهم، وبيَّن أنَّ الحُكمَ والولايةَ مَسئوليَّةٌ تَقومُ على الجَدارةِ والكَفاءةِ مع العِلمِ والفِقهِ.

والولاية: خلافة، وسلطنة، وقضاء، وإمارة، وبظَارة، ووصاية، وغير ذلك.

(فَشَقَّ عَلَيْهِمْ) أي: حَمَلهم على ما يَشُقّ عليهم، أو أوصل المشقة إليهم، بقول، أو فعل، فهو من المشقّة التي هي الإضرار، لا من الشقاق الذي هو الخلاف.

(فَرَفَقَ بِهِمْ) رِفقًا بالكسر، وهو: خلاف الْعُنْف؛ أي: عامَلَهم باللين، والإحسان.

قال المناويّ - رَحِمَهُ اللهُ -: وهذا دعاء مجاب، وقضيته لا يَشك في حقيقتها عاقل، ولا يرتاب، فقلما ترى ذا ولاية عَسَفَ، وَجَارَ، وعامَلَ عيال الله بالعتوّ والاستكبار، إلَّا وكان آخر أمره الوبال، وانعكاس الأحوال، فإن لَمْ يعاقَب بذلك في الدنيا، قَصُرت مدّته، وعُجِّل بروحه إلى بئس المستقرّ سَقَر، ولهذا قالوا: الظلم لا يَدُوم، وإن دام دَمَّرَ، والعدل لا يدوم، وإن دام عمّرَ، وهذا كما ترى أبلغ زجر عن المشقّة على الناس، وأعظم حثّ على الرفق بهم، وقد تظاهرت على ذلك الآياتِ والأخبار[2].

وقال النوويّ - رَحِمَهُ اللهُ -: هذا من أبلغ الزواجر عن المشقّة على النَّاس، وأعظم الحثّ على الرفق بهم "[3].

فوائد من الحديث:

١- بيان الحثّ على الرفق بالرعيّة، والنهي عن إدخال المشقّة عليهم، وهو الذي أمر الله تعالى به نبيّه - ﷺ -، حيث يقول: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

---

[1] رواه مسلم: بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ، (١٨٢٨).

[2] فيض القدير: ٢/ ١٠٧.

[3] شرح النوويّ: ١٢/ ٢١٣.

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩].

٢- بيان أن قول الحقّ، وذِكْر فضل ذوي الفضل مرغّبٌ فيه مع العدوّ والصديق، فلا ينبغي للإنسان أن يَستر فضل أهل الفضل، ويمتنع منه لعداوة بينهما ونحوها.

٣- فضل عائشة - رضي الله عنها -، ومدى ورعها، ومحبّتها للنبيّ - ﷺ -، حيث لَمْ تمتنع من نشر حديثه لإساءة ذلك الأمير تجاهها حيث قتل أخاها، وأحرقه بالنار.

٤- يجب على من تولى شيئاً من أمور المسلمين أن يرفق بهم من استطاع لأنه إذا رفق بهم، رفق الله به وإذا شق عليهم، شق الله عليه.

٥- الجزاء من جنس العمل، لأن النبي ﷺ لم يطلب شيئاً أكثر مما عمل هذا الرجل.

الحديث السادس عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»[1].

الشرح:

كان النَّبيُّ ﷺ يَحرِصُ على تَوضيحِ أُمورِ الدِّينِ والدُّنيا للمسْلِمين، ومِن ذلك أنَّه أمَرَ النَّاسَ أنْ يَلْزَمُوا السَّمْعَ والطَّاعةَ لِولاةِ أُمورِهم أهل العدل؛ لِمَا في الخُروجِ عليهم مِنَ المَفاسِدِ الكَبيرةِ، وحَذَّرَ ﷺ مِن شَقِّ عَصا الطَّاعةِ، ومُفارَقةِ الجَماعةِ أو إلحاقِ الضَّررِ بالمسْلِمين.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ مَن خرَج عن طاعةِ الإمامِ ووُلاةِ الأمورِ، وفارَق جماعةَ الإسلامِ المتَّفِقةَ على بَيعةِ الإمامِ، فمَات على تلكَ الحالِ مِن المفارَقةِ وعدَمِ الطَّاعةِ؛ مَاتَ مِيتَةً جاهليَّةً، أي: على الضَّلالِ؛ لأنَّه مُفارِقٌ للجماعةِ عاصٍ لِوَلِيِّ أمرِه، فتكونُ مَوتتُه على هَيئةِ مَوتِ أهلِ الجاهليَّةِ، وهي فَترةُ ما قبْلَ بَعثةِ النَّبيِّ ﷺ ؛ فإنَّهم كانوا لا يُطيعون أميرًا ولا يَنضمُّون إلى جَماعةٍ واحدةٍ، بلْ كانوا فِرَقًا وعَصائبَ يُقاتِلُ بعضُهم بعضًا.

وأخبَرَ ﷺ أنَّ مَن قاتَلَ تحتَ رَايَةٍ «عُمِّيَّةٍ» نِسبَةً إلى العَمَى الَّذي لا يَستبين فيه وجْهُ الحقِّ من الباطلِ؛ يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ ويُقاتِلُ لِلْعَصَبَةِ، أي: يَغضَبُ لِمَحْضِ التَّعَصُّبِ لقومِه أو قَبيلتِه، لا لِنُصْرَةِ الدِّينِ والحقِّ، فيُقاتِلُ بغيرِ بَصيرَةٍ وعلمٍ تعصُّبًا، فإذا قُتِل على تلكَ الحالِ، كانت كقِتْلةِ الجاهليَّةِ.

«ومَن خرَج على أُمَّتِي يَضرِبُ بَرَّها»، أي: صالِحَها المجْتَنبَ للمَناهي، «وفاجِرَها» وهو الَّذي لا يَقرَبُ الطَّاعاتِ، ويُجاهِرُ بالمَعاصي، فهذا الخارجيُّ يُوقِعُ أذاهُ على مَن تَمكَّنَ منه دونَ تَفرقةٍ بيْن تَقِيٍّ وشَقيٍّ، «ولا يَتَحَاشَى»، أي: لا يَكْتَرِثُ ولا يُبالِي بما يَفعلُه ولا يَخافُ عُقوبَتَه ووبالَه مِن قتْلِ مُؤمِنِها، ولا يَفِي لِذِي عَهدٍ، وهُم الذِّمِّيُّون الَّذين لهُم عَهدٌ وأمانٌ مِن المسْلِمين، بلْ يَنقُضُه ويَقتُلُهم كما يَقتُلُ المسْلِمين، ويَحتمِلُ أنَّه لا يَفي للإمامِ بَيعتَه بالولايةِ وبالسَّمعِ والطَّاعةِ، فمَن فَعَل ذلكَ فليْس مِنِّي، أي: ليْست له حُرمةٌ، بلْ إنْ ظُفِر به قُتِل، أو عُوقِبَ بحسَبِ حالِه وجَريمتِه. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مَعناه: لَيْسَ على طَريقَتي، وهذا تَبرُّؤٌ مِن أفعالِه، وأمرُه إلى مَشيئةِ اللهِ؛ إنْ شاءَ عذَّبَه، وإنْ شاء غفَرَله، لا أنَّه كافرٌ خارجٌ عن مِلَّةِ الإسلامِ.

وهذا التَّبَرِّي ظاهره أنه ليس بِمُسلم، وهذا صحيحٌ إن كان معتقدًا لحِلِّيَّة ذلك، وإن كان معتقدًا لتحريمه فهو عاصٍ من العصاة مرتكب كبيرة فأمره إلى الله تعالى، ويكون معنى التَّبَرِّي على هذا أي

---

[1] رواه مسلم: بَابُ الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر، (١٨٤٨).

ليست له ذمّة ولا حرمة، بل إن ظُفِر به قُتِل أو عُوقب بحسب حاله وجريمته، ويحتمل أن يكون معناه: ليس على طريقتي ولست أرضى طريقته.

وهذا الذي ذكره في هذا الحديث هي أحوال المقاتلين على المُلك، والأغراض الفاسدة والأهواء الركيكة، وحمية الجاهلية.

الفوائد:

١- فيه دليل على أن ارتكاب المعاصي والفجور لا يخرج من الأمة.

٢- في هذا الحديث إشارة إلى أنه من تاب ورجع إلى الجماعة وطاعة الإمام قبل أن يموت، خرج عن هذا الوعيد.

٣- وفي الحديثِ: الأمرُ بطاعةِ الأُمراءِ على كلِّ حالٍ فيما يُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ. وفيه: الأمرُ بِمُلازَمَةِ الجَماعةِ.

٤- وفيه: النَّهيُ عن القتالِ عَصَبِيَّةً.

الحديث السابع عشر

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى»[1].

الشرح:

لَيْسَ المُرَاد من السياحة مَا قد يفهمهُ من تعبد بِمُجَرَّد السياحة فِي الأَرْض، والتفرد فِي شَوَاهِق الْجبَال والكهوف والبراري.

(**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**) وهو أفضل، فإنه عبادة شاقة على النفس ونفعه متعد إلى الغير، وهو يشمل الجهاد الأكبر والأصغر.

ولعل هذا محمول على أن السؤال كان في زمن تعين فيه الجهاد وكان السائل شجاعًا؛ وإنما دلَّه على الجهاد؛ لأن الجهاد في ذلك الزمان، وكذا في أكثر الأزمان ذِرْوَةُ سنام الإسلام، وفيه كبت الكفر والضلال.

---

[1] سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في النهي عن السياحة، حديث رقم (٢٤٨٦) ، (٣ / ١٢)، قال الألباني حديث حسن.

الحديث الثامن عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضَ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ» قَالُوا يَا نَبِيَّ اللهِ أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ: " نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلَا يَصِلُونَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي. فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؟ "[1].

الشرح:

في هذا الحديثِ أنَّ المُسلِمينَ مِن أمَّةِ النَّبيِّ ﷺ يَتميَّزُون عن غَيرِهِم مِنَ الأُمَمِ يومَ القيامةِ بالنُّورِ في وُجوهِهم وأيديهم مِن أثَرِ الوضوءِ، فيَرِدونَ على حَوضِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ الواسِعِ

وقوله: ليست سيما لأحدٍ غيركم : السيما: العلامة. قال الله تعالى: {سِيمَاهمْ فِي وُجُوهِهِم}.

أصدُّ الناس : أرُدّ.

أذود الناس: أطرد.

قوله: كما يذود الرجلُ الإبل الغريبة عن حوضه :

الإبلُ الغريبةُ التى لا يُعرف صاحِبُها؛ فهى ترعى مع الإبل وتزاحم وارِدَتها على حوضِها، فصاحبُ الإبل يضربُها جُهْدَه ويطردُها حتى يسقى إبلَه، وهى تترامى بالعطش وهو يصُدُّها، ولذلك ضرب المثل بضربه.

هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال:

(أحدها): أن المراد به المنافقون والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل، فيناديهم النبي - صلى الله عليه وسلم - للسِّيما التي عليهم، فيقال: ليس هؤلاء مما وعدت بهم، إن هؤلاء بدلوا بعدك، أي لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

(الثاني): أن المراد من كان في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم ارتد بعده، فيناديهم النبي - صلى الله عليه وسلم -، وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء، لما كان يعرفه - صلى الله عليه وسلم - في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك.

(الثالث): أن المراد بهم أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام. وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين يُذَادون بالنار، بل يجوز أن يذادوا عقوبة لهم، ثم يرحمهم الله سبحانه وتعالى، فيدخلهم الجنة بغير عذاب.

قال أصحاب هذا القول: ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل. ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعده، لكن عرفهم بالسيما.

---

[1] صحيح مسلم: بَابُ اسْتِحْبَابِ إِطَالَةِ الْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ فِي الْوُضُوءِ، (٢٤٧).

وقال الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج، والروافض، وسائر أصحاب الأهواء. قال: وكذلك الظَّلَمة المسرفون في الجور، وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر. قال: وكل هؤلاء يُخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بهذا الخبر[1].

[1] شرح مسلم: ٣/ ١٣٦ - ١٣٧.

الحديث التاسع عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1].

الشرح:

الشَّهادةُ بأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ ﷺ تَتضمَّنُ طاعتَه في كلِّ ما أمَرَبه، واجتنابَ كلِّ ما نَهى عنه؛ قالَ اللهُ تَعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء: ٥٩] وفي هذا الحَديثِ يُخبِرُالنَّبيُّ ﷺ بأنَّ أُمَّتَه سَتَدخُلُ الجَنَّةَ يومَ القيامةِ، إلَّا مَن عَصَاه ولم يَمتَثِلْ أمْرَه.

وقَوْله: إِلَّا من أَبى: أَي: امْتنع عَن قبُول الدعْوَة، أَو عَن امْتِثَال الْأَمر.

فَإِن قلت: العَاصِي يدْخل الْجنَّة أَيْضًا، إِذْ لَا يبْقى مخلداً فِي النَّار؟

قلت: يَعْنِي لَا يدْخل فِي أول الْحَال، أَو المُرَاد بالإباء الِامْتِنَاع عَن الْإِسْلَام.

(كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) بفتح الهمزة والموحدة بامتناعه عن قبول الدعوة أو بتركه الطاعة التي هي سبب لدخولها؛ لأن من ترك ما هو سبب شيء لا يوجد بغيره؛ فقد أبى أي امتنع والمراد أمة الدعوة؛ فالآبي هو الكافر بامتناعه عن قبول الدعوة، وقيل أمة الإجابة فالآبي هو العاصي منهم استثناهم تغليظا وزجرا عن المعاصي.

قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟

قال: (من أطاعني) أي انقاد وأذعن لما جئت به (دخل الجنة) وفاز بنعيمها الأبدي بين أن إسناد الامتناع عن الدخول إليهم مجاز عن الامتناع لسببه وهو عصيانه بقوله (ومن عصاني) بعدم التصديق أو بفعل المنهي (فقد أبى) فله سوء المنقلب بإبائه والموصوف بالإباء إن كان كافرا لا يدخل الجنة أصلا أو مسلما لم يدخلها مع السابقين الأولين .

الفوائد من الحديث :

١- في هذا الحديث: أعظم بشارة للطائعين من هذه الأمة، وأن كلهم يدخلون الجنة إلا من عصى الله ورسوله واتبع شهواته وهواه.

٢- وفيه: أنَّ طاعةَ النَّبيِّ ﷺ تُوجِبُ الجَنَّةَ، ومَعصيتَه تُوجِبُ النَّارَ.

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،(٧٢٨٠).

الحديث العشرون

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ "[1].

الشرح:

حذَّرَنا النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ عن الجَهرِ بالسُّوءِ، فقال: «كلُّ أُمَّتي مُعافًى»، أي: كلُّ واحدٍ مِن هذه الأمَّةِ إذا ارتكَبَ مَعصيةً، يُرجى له عفْوُ اللهِ ومَغفرتُه، والنَّجاةُ مِن النَّارِ، «إلَّا المجاهِرين» بالمَعاصي، فلا يُعافَوْنَ، والمجاهِرُ: الفاسقُ المُعلِن بفسْقِه، الَّذي يَأتي بالفاحشةِ ثمَّ يُشيعُها بيْن النَّاسِ تَفاخُرًا وتَهوُّرًا ووَقاحةً.

ثمَّ أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ مِن المُجاهرةِ -أي: الوقاحةِ والاستهتارِ بالدِّينِ والاستخفافِ بحُدودِ الله- أنْ يَعمَلَ الرَّجلُ باللَّيلِ مَعصيةً، ثمَّ يُصبِحَ وقدْ سَتَرَه اللهُ، فيُحدِّثَ إخوانَ السَّوءِ مِن أصدقائِه بأنَّه فعَلَ المعصيةَ الفلانيَّةَ أمسِ، وقدْ بات يَستُرُه ربُّه ويُصبِحُ يَكشِفُ سِترَ اللهِ عليه! وهذا المجاهِرُ لا يُريدُ السِّترَ، وإنَّما يُريدُ الفضيحةَ، حيث يَراها في نظَرِه مَفخرةً ومُباهاةً، والعياذُ بالله!

وقوله: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى): اسم مفعول من العافية، وهو إما بمعنى عفا الله عنه، وإما سلمه الله وسلم منه.

المجاهرون:

هم الذين جاهروا بمعاصيهم، وأظهروها، وكشفوا ما سَتَر الله تعالى عليهم، فيتحدثون بها لغير ضرورة، ولا حاجة، يقال: جهر بأمره، وأجهر، وجاهر[2].

ومحصل الكلام: كل واحد من الأمة يعفى عن ذنبه ولا يؤاخذ به إلا الفاسق المعلن.

معنى الحديث:

أن يعمل الرجل معصية في خفية وخلوة، ثم يخرج يتحدث بها مع الناس، ويجهر بها ويعلنها، وهذا من أكبر الكبائر و أفحش الفواحش. وذلك أن هذا لا يصدر إلا من جاهل بقدر المعصية، أو مستهين مستهزئ بها، مصر عليها، غير تائب منها، مظهر للمنكر. والواحد من هذه الأمور كبيرة، فكيف إذا اجتمعت؟ ! فلذلك كان فاعل هذه الأشياء أشد الناس بلاء في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، لأنَّه تجتمع عليه عقوبة تلك الأمور كلها، وسائر الناس ممن ليس على مثل حاله، وإن كان مرتكب كبيرة فأمره أخف، وعقوبته - إن عوقب - أهون، ورجوعه عنها أقرب

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ سَتْرِ المُؤْمِنِ عَلَى نَفْسِهِ، (٦٠٦٩)، ورواه مسلم: في الزهد والرقائق باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه رقم(٢٩٩٠).

[2] شرح النوويّ: ١٨/ ١١٩.

من الأول، لأنَّ ذلك المجاهر قلّ أن يتوب، أو يرجع عما اعتاده من المعصية، وسهل عليه منها. فيكون كل العصاة بالنسبة إليه إما معافى مطلقا إن تاب، وإما معافى بالنسبة إليه إن عوقب[1].

الفوائد من الحديث:

١- من جاهر بفسقه أو بدعته؛ جاز ذكره بما جاهر به دون ما لم يجاهر به.

٢- إن ستر الله مستلزم لستر المؤمن على نفسه، فمن قصد إظهار المعصية والمجاهرة بها أغضب ربه؛ فلم يستره، ومن قصد التستر بها حياء من ربه، ومن الناس؛ منَّ الله عليه بستره إياه.

في ستر المؤمن على نفسه منافع:

منها: أنه إذا اختفى بالذنب عن العباد لم يستخفوا به ولا استذلوه؛ لأن المعاصي تذل أهلها.

ومنها: أنه كان ذنبًا يوجب الحد؛ سقطت عنه المطالبة في الدنيا.

وفي المجاهرة بالمعاصي: استخفاف بحق الله، وحق رسوله، وضرب من العناد.

---

[1] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٦/ ٦١٨.

الحديث الحادي والعشرون

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ - وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ - فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَطْعَمَتْهُ وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا البَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ، أَوْ: مِثْلَ المُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ "، شَكَّ إِسْحَاقُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ» - كَمَا قَالَ فِي الأَوَّلِ - قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ»، فَرَكِبَتِ البَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ[1].

الشرح:

أُمُّ حَرامٍ رضِيَ اللهُ عنها مِن مَحارِمِ النَّبيِّ ﷺ من قِبَل خالاتِه؛ لأنَّ أمَّ عَبدِ المطَّلِبِ كانت من بني النَّجَّارِ، وقيل: كانت إحدى خالاتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الرَّضاعةِ، وهي أختُ أُمِّ سُلَيمٍ، وخالةُ أنَسِ بنِ مالِكٍ خادِمِ النَّبيِّ ﷺ ، وكان أنَسٌ يَتبَعُه ويذهَبُ معه، ولذلك كان يَدخُلُ عليها.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ أنَسُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ مرَّةً على أمِّ حرامٍ بنتِ مِلحانَ رَضِيَ اللهُ عنها -يقال: اسمُها الغُمَيصاءُ، ويقالُ الرُّمَيصاءُ- فأطعمَتْه، ثُمَّ جعَلَتْ تَفْلِي رأْسَه ﷺ ، فتُفتِّشُه؛ لِتُخرجَ منه الأذى، فنامَ ﷺ ، ثُمَّ استيقظَ وهو يَضحَكُ، فسَأَلَتْه أمُّ حَرامٍ رضِيَ اللهُ عنها عَن سببِ ضَحِكِه، فقال لها: إنَّه رأى في المنامِ رُؤيا -ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ ووَحيٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه- وإنَّه رَأى ناسًا مِن أُمَّتِه خَرَجوا في الغزْوِ يَركَبونَ «ثَبَجَ هذا البَحْرِ» أي: وَسَطَ البَحرِ وظَهْرِه، كأنَّهم مِثلُ الملوكِ على أَسِرَّتِهم؛ لِاتِّساعِ السُّفنِ الَّتي يَركَبونَها، وفي هذا بُشرى منه ﷺ باتِّساعِ مُلْكِ أمَّتِه حتى يركبوا غُزاةً في البَحرِ، فيَعْبُروا منه إلى البلادِ التي وراءه، فيفتحونَها، فسألت أمُّ حرامٍ النَّبيَّ ﷺ أن يدعوَ لها اللهَ أن يجعلَها منهم، فدَعا لها رَسولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ وضَعَ رأْسَه مرةً أُخرى، ثُمَّ استيقَظَ وهو يَضحَكُ، فسَأَلَتْه أمُّ حَرامٍ رضِيَ اللهُ عنها عَن سَببِ ضَحِكِه، فقال لها مِثلَ ما قال في المرَّةِ الأُولى، فكرَّرَتْ عليه طلَبَها بأنْ يَدْعوَ لها أنْ تكونَ منهم، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «أنتِ مِنَ الأوَّلِينَ»، أي: مِن أوَّلِ مَن يكونُ على هذه السُّفنِ في وسَطِ البحرِ، فلمَّا كان زَمانُ خِلافةِ مُعاويةَ رضِيَ اللهُ عنه رَكِبَتْ أمُّ حرامٍ رضِيَ اللهُ عنها البَحْرَ في غزْوِ الرُّومِ، فلمَّا خرَجَتْ مِنَ البحرِ وفي الطَّريقِ لَمَّا رجعوا من غَزْوِهم صُرِعتْ عَن دابَّتِها، أي: وقعَتْ مِن فوْقِها فماتَتْ. قيل: خرجت مع زَوجِها في أوَّلِ غَزوةٍ كانت إلى الرُّومِ مع معاويةَ في زَمَنِ خِلافةِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ سَنةَ ثَمانٍ وعِشرينَ، وكان معاويةُ

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ : بَابُ الدُّعَاءِ بِالْجِهَادِ وَالشَّهَادَةِ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ،(٢٧٨٨)، ورواه مسلم: مسلم في الإمارة، باب: فضل الغزو في البحر رقم،(١٩١٢).

أوَّلَ من أشار بصُنعِ الأُسطولِ الإسلاميّ، وكان أوَّلَ من تأمَّرَ عليه في زَمَنِ خِلافةِ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ.

فوائده:

١- الترغيب في الجهاد، والحضّ عليه، وبيان فضيلة المجاهد.

٢- جواز ركوب البحر المالح للغزو.

٣- مشروعية القائلة؛ لِمَا فيها من الإعانة على قيام الليل.

٤- جواز إخراج ما يؤذي البَدَن من قمل ونحوه عنه.

٥- مشروعية الجهاد مع كل إمام؛ لتضمّنه الثناء على من غزا مدينة قيصر، وكان أمير تلك الغزوة يزيد بن معاوية، ويزيدُ يزيدُ.

٦- ثبوت فضل الغازي إذا صلحت نيته، وقال بعض الشراح: فيه فضل المجاهدين إلى يوم القيامة؛ لقوله فيه: "ولستِ من الآخِرين"، ولا نهاية للآخرين إلى يوم القيامة.

٧- أن فيه ضُروبًا من إخبار النبيّ - ﷺ - بما سيقع، فوقع كما قال، وذلك معدود من علامات نبوّته

٨- ومنها: إعلامه ببقاء أمته بعده، وأن فيهم أصحاب قوّة وشوكة، ونكاية في العدوّ، وأنهم يتمكنون من البلاد حتى يغزوا البحر، وأن أمّ حرام تعيش إلى ذلك الزمان، وأنها تكون مع من يغزو البحر، وأنها لا تُدرك زمان الغزوة الثانية.

٩- فيه جواز الفرح بما يَحدُث من النعم، والضحك عند حصول السرور؛ لضحكه - ﷺ - إعجابًا بما رأى من امتثال أمته أمره لهم بجهاد العدوّ، وما أثابهم الله تعالى على ذلك.

١٠- جواز قائلة الضيف في غير بيته بشرطه؛ كالإذن، وأَمْن الفتنة، وليس هناك أيّ ضرر.

١١- جواز خدمة المرأة الأجنبية للضيف، بإطعامه، والتمهيد له، ونحو ذلك، إذا خلا من الموانع الشرعيّة؛ كالخلوة، ونحوها.

١٢- إباحة ما قدمته المرأة للضيف من مال زوجها؛ لأن الأغلب أن الذي في بيت المرأة هو من مال الرجل.

١٣- أن الوكيل، أو المؤتمَن إذا عَلِم أنه يَسُرّ صاحبه ما يفعله من ذلك جاز له فعله، ولا شك أن عبادة - رضي الله عنه - كان يسرّه أكل رسول الله - ﷺ - مما قدمته له امرأته، ولو كان بغير إذن خاصّ منه.

١٤- أن فيه خدمة المرأة الضيف بتفلية رأسه، إذا كان ممن يحلّ لها مسّه.

الحديث الثاني والعشرين

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَـقِيقٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَهْطٍ بِإِيلِيَاءَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَـفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ»، قِيلَ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ سِـوَاكَ؟ قَالَ: «سِوَايَ». فَلَمَّا قَامَ قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا ابْنُ أَبِي الجَدْعَاءِ[1].

الشرح:

الشفاعةُ أنواعٌ كثيرةٌ:

- فالشَّفاعةُ الكُبْرى هي شَفاعتُه ﷺ لأُمَّتِهِ.
- وهناك مَنْ يَشْفَعُ في أهْلِهِ.
- وهناك مَنْ يَشْفَعُ لعُمومِ النَّاسِ.

وكلُّ ذلك بعدَ إذنِ اللهِ تعالى ورِضـاه سُـبحانَه. وفي هذا الحديثِ يقولُ النبيُّ ﷺ: "يَدخُلُ الجَنَّةَ بشـفاعةِ رَجُلٍ"، أي: سـوف يَشْـفَعُ رَجُلٌ يومَ القيامةِ في أُناسٍ فيُدْخِلهم اللهُ الجَنَّةَ، "مِنْ أُمَّتي"، أي: مِنْ أُمَّةِ النبيِّ ﷺ مِنَ المسـلمينَ، "أَكْثَرُ مِنْ بني تَميمٍ"، أي: عَدَدُ هؤلاءِ الذين سـوف يَشْـفَعُ لهم هذا الرَّجُلُ سيكونُ أَكْثَرَ مِنْ عددِ قبيلةِ بني تَميمٍ، وبنو تَميمٍ قبيلةٌ كبيرةٌ مِنَ العَرَبِ.

والرجل: قيل: هو عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - وقيل: أوس القرني، وقيل غيره.

وفي الحديث:

بيانُ شفاعةِ أُناسٍ مِنْ أُمَّةِ النبيِّ ﷺ.

---

[1] سنن الترمذي: بَابُ مَا جَاءَ فِي الشَّفَاعَةِ،(٢٤٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٨٥).

الحديث الثالث والعشرون

عَنِ ابْنِ شِـهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَـعِيدُ بْنُ الْمُسَـيِّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، حَدَّثَهُ، قَالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَـبْعُونَ أَلْفًا تُضِـيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَـاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَـةُ بْنُ مِحْصَـنٍ الْأَسَـدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَـالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَـامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَـارِ، فَقَـالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ ﷺ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[1].

الشرح:

(**زُمْرَةٌ**): أي جماعة.

تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ: يعني أنهم في إشراق وجوههم على صفة القمر في ليلة تمام نوره، وهي ليلة اليوم الرابع عشر.

(**يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ**) النَّمِرَة: كِسَـاء من صـوف، كالشـملة، فيه خُطوط بِيضٌ وسُـودٌ وحُمْرٌ، كأنها أُخِذت من جلد النَّمِر؛ لاشتراكهما في التلَوّن، وهي من مآزر الأعراب.

اختَلَفَت أجوبة العلماء في الحكمة في قوله - ﷺ -: "سبقك بها عكاشة":

فقال القاضـي عياض - رَحِمَهُ اللهُ -: قيل: إن الرجل الثاني لَمْ يكن ممن يَسـتحقّ تلك المنزلة، ولا كان بصـفة أهلها، بخلاف عكاشـة، وقيل: بل كان منافقًا، فأجابه النبيّ - ﷺ - بكلام مُحْتَمِلٍ، ولم يَرَ - ﷺ - "التصـريح له بأنك لسـت منهم؛ لما كان - ﷺ - من حسـن العشرة، وقيل: قد يكون سبق عكاشة بوحي أنه يجاب فيه، ولم يَحصُل ذلك للآخر.

وقال القرطبيّ لَمْ يكن عند الثاني من تلك الأحوال ما كان عند عكاشـة، فلذلك لَمْ يُجَبْ؛ إذ لو أجابه، لجاز أن يطلب ذلك كلُّ من كان حاضـرًا، فَيَتَسَـلْسَـل، فَسَـدَّ البابَ بقوله ذلك.

وهذا أولى مِن قول مَن قال: كان منافقًا لوجهين:

[أحدهما]: أن الأصل في الصحابة - رضي الله عنهم - عدم النفاق، فلا يَثبُت ما يُخالف ذلك إلَّا بنقل صحيح.

[والثاني]: أنه قَل أن يصـدُرمثل هذا السـؤال إلَّا عن قصـد صـحيح، ويقين بتصـديق الرسول - ﷺ -، وكيف يصدُرذلك من منافق، وإلى هذا جنح ابن تيمية. وصَحَّحَ النوويُّ أن النبيّ - ﷺ - عَلِمَ بالوحي أنه يُجاب في عكاشة، ولم يقع ذلك في حق الآخر.

وقال السـهيليّ: الذي عندي في هذا أنَّها كانت سـاعة إجابة، عَلِمَها - ﷺ -، و اتَّفَقَ أن الرجل قال بعدما انقَضَت.

---

[1] صحيح مسلم: بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ،(٢١٦).

وحاصل ذلك: أن ذلك الوقت الذي سأل فيه عكاشة كان وقت إجابة، وعلمه النبيّ - ﷺ - بالوحي، ثم انقضى ذلك الوقت، فسأل الثاني، فأجابه بما أجابه به.

الفوائد:

١- بيان أن زُمرةً من هذه الأمة يدخلون الجنّة بغير حساب.

٢- بيان كرامة النبيّ - ﷺ - على ربّه - عَزَّ وَجَلَّ - حيث تفضّل الله تعالى على هذه الزمرة من أمته، فأدخلها الجنّة بغير حساب، {وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: ١١٣].

٣- بيان فضل هذه الأمة ببركة نبيّها - ﷺ - حيث يدخل عدد كثير منهم الجَنَّة من غير أن يحاسبوا، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤].

٤- أن فيه إثباتَ الحساب في الآخرة على الأعمال.

٥- أن جلّ الأمة يحاسبون على أعمالهم، وهذا الحساب ينقسم إلى قسمين: حساب عَرْضٍ، وحساب مناقشة، كما أخبر الله تعالى بذلك، حيث قال: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢)} [الانشقاق: ٧ - ١٢].

وأخرج الشيخان عن عائشة - رضي الله عنهما -: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "ليس أحدٌ يحاسب يوم القيامة إلَّا هَلَك"، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)} [الانشقاق: ٨]؟ ، فقال رسول الله - ﷺ -: "إنما ذلكِ العرضُ، وليس أحد يُناقَش الحسابَ يوم القيامة إلَّا عُذِّب".

٦- حسن تلطّف النبيّ - ﷺ -، وكريم أخلاقه، حيث لَمْ يقل للرجل الآخر: إنك لست منهم، بل أجمل الجواب، فقال: "سبق بها عكاشة"؛ لئلا ينكسر قلبه، فهذا مصداق قوله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

٧- ما كان عليه الصحابة - رضي الله عنهم - من حبّهم المنافسة في الخير، وحرصهم على الوصول إليه، فقد قال عكاشة - رضي الله عنهم - للنبيّ - ﷺ - لَمّا سمع هذا الخبر العظيم: "ادع الله أن يجعلني منهم".

٨- أنه يؤخذ من قوله: "تضيء وجوههم ... إلخ"، أن أنوار أهل الجَنَّة تتفاوت بحسب درجاتهم، وكذا صفاتهم في الجمال ونحوه.

الرابع والعشرون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ»[1].

الشرح:

الصَّلاةُ فيها وُقوفٌ بيْنَ يَدَيِ الله سبحانَه وتعالَى، ويَنبَغي فيها: الطَّهارةُ، وحُسنُ الهَيئةِ، وتنظيفُ الفَمِ ،والأسنانِ. وفي هذا الحَديثِ يخبِرُ النبيُّ ﷺ أنَّه لولا أن تقَعَ المَشَقَّةُ على النَّاسِ المصلِّينَ مِن أُمَّتِه لأمَرَهم وأَوْجَبَ عليهم استخدامَ السِّواكِ قبْلَ أن يُصَلُّوا أيَّ صلاةٍ، سواءٌ كانت فرضًا أو نَفلًا، وسواءٌ كان الفَمُ متغيِّرًا أو نظيفًا، وهذا مِن الحثِّ على هذه المكرُمةِ، وهي تطهيرُ الفَمِ وتنظيفُ الأسنانِ عندَ لقاءِ الله في الصَّلاةِ.

الحكمة من الندب إلى السواك:

الإسلام دين النظافة، ودين المحافظة على الصحة، ودين الألفة والمحبة بين أعضاء المجتمع، أهداف جليلة تتحقق من عمل سهل يسير، أهداف عملاقة يغرسها عود الأراك المسمى بالسواك، مطهرة للفهم من فضلات الطعام، مزيل للروائح الكريهة والمتخلفة عن بعض الأطعمة، مغير للرائحة المنبعثة من أبخرة المعدة، أو من خلل في اللثة وقواعد الأسنان، ومنظف للأسنان وللسان من الألوان الغريبة، والصفرة الطارئة، ثم هو بعد ذلك يحفظ الفم من كثير من الأمراض، ويحفظ الأضراس من نخر السوس، ويحفظ اللثة من الضعف أو التشقق، ويحفظ المعدة من عفونات الطعام التي تتخلف بدونه بين الأسنان، وبالرائحة الطيبة، والنظافة الظاهرة تتم المودة والألفة بين الناس. تلك بعض فوائد السواك الدنيوية، التي لا تقاس بالفوائد الأخروية، لقد جاءت الشريعة بأن السواك مرضاة للرب، فطلبت استعماله في مختلف الأوقات وعلى أي الحالات، وشددت طلبه في مواطن الإقبال على العبادة، ومواطن الاجتماع بالناس. ولولا الرفق بالمؤمنين لكان السواك فرضا عليهم عند كل وضوء، وعند كل صلاة.

فوائد من الحديث:

١- ما كان عليه ﷺ من الرفق بأمته والشفقة عليها.

٢- جواز الاجتهاد من النبي ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه نص لكونه جعل المشقة سببا لعدم أمره.

٣- وفيه أن السنن والفضائل ترتفع عن الناس إذا خشى منها الحرج عليهم، وإنما أكد في السواك؛ لمناجاة الله، ولتلقى الملائكة لتلك المناجاة فلزم تطهير النكهة، وتطييب الفم.

٤- وفيه: دليلٌ على أن الحرج والمشقة مرفوعاًن عن هذه الأمة، كما قال تعالى: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] .

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ : السِّوَاكِ يَوْمَ الجُمُعَةِ،(٨٨٧)، ورواه مسلم: في الطهارة باب السواك، رقم،(٢٥٢).

٥- وفيه: دليل على أن السواك ليس بفرض كالوضوء للصلاة، وبذلك قال جمهور العلماء.

٦- وفي الحديث: دليل على استحباب السواك مع كل صلاةٍ، فدخل في ذلك صلاة الجمعة وغيرها.

٧- والسواك مع الصلاة نوعان:

٨- أحدهما: السواك مع الوضوء للصلاة.

٩- والثاني: السواك للصلاة عند القيام إليها.

١٠-الحديث بعمومه يدل على استحباب السواك للصائم بعد الزوال.

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو صَالِحٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ حَمُولَةً، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيتُ ثُمَّ قُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيتُ»[1].

الشرح:

للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ والشَّهادةِ في سَبيلِه مَنْزلةٌ عاليةٌ، وفَضْلٌ عَظيمٌ؛ لِمَا فيه مِن الفَضْلِ والأَجْرِ الذي يُفضَّلُ به على كَثيرٍ من العِباداتِ.

وفي هذا الحديث تمنّ ﷺ ألا يتخلف عنه؛ للحرص منه على الوصول إلى أعلى درجات الشاكرين بذلاً لنفسه في مرضاة ربه، وإعلاء كلمته، ورغبته في الازدياد من الثواب ولتتأسى به أمته.

سَرِيَّة: قطعة من الجيش سميت بذلك؛ لأنها خيار رجال الجيش.

«لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»؛ لأن أنفسهم لا تطيب بالتخلف، ولا يقدرون على التأهب لعجزهم عن آلة السفر (مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ)، هي القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدوّ (ولكن لا أجد حمولة) هي التي يحمل عليها من كبار الإبل (ولا أجد ما أحملهم عليه ويشق علي أن يتخلفوا عني، ولوددت أي والله لوددت (أني قاتلت في سبيل الله فقتلت، ثم أحييت، ثم قتلت، ثم أحييت).

في هذا الحديث من الفقه:

أن رسول الله - ﷺ - لما يعلم من فضل الشهادة، أحب أن يكون غازيًا في سبيل الله مع أصحابه المؤمنين؛ لأنه قال: (لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة)؛ يعني فيحتملون، ولقد بين عظم أمر الشهادة، وفخَّم قدرها، حتى تمنى أن يبلغ فيها ما لم يبلغه أحد؛ فإنه لم يقتل أحد ثم يعاد، فتمنى ﷺ مقامًا لم يبلغه أحد، وإن كان كل شهيد على وجه الأرض في ميزانه - ﷺ -، وثوابه له.

فوائد من الحَديث:

١- تَمَنِّي الشَّهادةِ، وعِظَمُ أجْرِها.

٢- بَيانُ شِدَّةِ شَفَقةِ رَسولِ الله ﷺ عَلَى أُمَّتِه ورَأْفَتِه بِهم.

٣- وَفيه: قَولُ الإنْسانِ: ودِدْتُ حُصولَ كَذا مِن الخَيْرِ الَّذي يَعلَمُ أنَّه لا يَحْصُلُ.

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ : الجَعَائِلِ وَالحُمْلاَنِ فِي السَّبِيلِ، (٢٩٧٢).

استشكال ودفعه:

استَشْكَل بعض الشراح صدور هذا التمني من النبيّ - ﷺ - مع علمه بأنه لا يُقْتَل.

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله -: والذي يظهر في الجواب أن تمني الفضل والخير لا يستلزم الوقوع، فقد قال - ﷺ -: "لو دَدِنا لو صَبَر موسى حتى يقصّ علينا من أمرهما"، وكأنه - ﷺ م- أراد المبالغة في بيان فضل الجهاد، وتحريض المسلمين عليه[1].

[1] فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ١٧.

الحديث السادس والعشرون

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: أَعْتَمَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ حَتَّى ذَهَبَ عَامَّةُ اللَّيْلِ، وَحَتَّى نَامَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»[1].

الشرح:

قوله: (أَعْتَمَ النَّبِيُّ - ﷺ -) أي أخّر العشاء الأخيرة إلى عَتَمة الليل، وهي ظلمته.

قوله ﷺ إنه لوقتها لولا أن أشــق على أمتي معناه إنه لوقتها المختار ، أو الأفضــل؛ ففيه تفضــيل تأخيرها، وأن الغالب كان تقديمها؛ وإنما قدمها؛ للمشــقة في تأخيرها، ومن قال بتفضــيل التقديم قال لو كان التأخير أفضــل لواظب عليه ولو كان فيه مشــقة ومن قال بالتأخير قال قد نبه على تفضــيل التأخير بهذا اللفظ وصــرح بأن ترك التأخير إنما هو للمشــقة ومعناه والله أعلم أنه خشــي أن يواظبوا عليه؛ فيفرض عليهم ويتوهموا إيجابه فلهذا تركه كما ترك صــلاة التراويح وعلل تركها بخشــية افتراضــها والعجز عنها وأجمع العلماء على اســتحبابها؛ لزوال العلة التي خيف منها، وهذا المعنى موجود في العشــاء قال الخطابي وغيره إنما يســتحب تأخيرها؛ لتطول مدة انتظار الصــلاة، ومنتظر الصــلاة في صلاة[2].

ولم يقل أحد من العلماء أن تأخيرها إلى ما بعد نصف الليل أفضل.

فوائده:

١- بيان استحباب تأخير صلاة العشاء.

٢- بيان ما كان عليه الصحابة -رضي الله عنهم- من اهتمامهم بصلاة الجماعة.

٣- ومنها: ما قاله النوويّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: إن التأخير المذكور في هذا الحديث وما بعده كلُّه تأخير لم يَخرُج به عن وقت الاختيار، وهو نصف الليل، أو ثلث الليل.

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ: وَقْتِ الْعِشَاءِ وَتَأْخِيرِهَا، (٦٣٨).

[2] شرح النووي على مسلم: ٥/ ١٣٩.

السابع والعشرون

عن عَمْرو بْن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الأُمَوِيُّ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ مَرْوَانَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَسَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ الصَّادِقَ المَصْدُوقُ، يَقُولُ «هَلاَكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ»، فَقَالَ مَرْوَانُ: غِلْمَةٌ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ أُسَمِّيَهُمْ بَنِي فُلاَنٍ، وَبَنِي فُلاَنٍ[1].

الشرح:

كان الحُكمُ بعد رَسولِ اللهِ ﷺ خلافةً راشِدةً، ثمَّ تحوَّل بعد الخليفةِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ رَضِيَ اللهُ عنه مُلكًا يُورَّثُ لِمن يخَلِّفُه من الأبناءِ .

(هلاك أمتي) الموجودين إذ ذاك ومن قاربهم لا كل الأمة إلى يوم القيامة .

(غلمة) بكسر الغين المعجمة وسكون اللام جمع غلام، وهو الشاب الذي ظهَرَ شارِبُه، وهذا للدَّلالةِ على سَفاهَةِ عُقولِهم وحَداثةِ أسنانِهم، وأنهم لا خِبرةَ لهم، ولا جرَّبوا الأمورَ، ولا لهم محافَظةٌ على أمورِ الدِّينِ، وإنما تصَرُّفُهم على مقتضى غَلَبةِ الأهواء، وحِدَّةِ الشَّبابِ.

أي: يكونون أُمراءَ ويَصِلون إلى المُلْكِ والسُّلطانِ عَنوةً واقتدارًا، فيَظلِمون ويتجَبَّرون، أو أنهم يُهلِكون النَّاسَ بسَبَبِ طَلَبِهم المُلْكَ، والقِتالِ لأجْلِه، فتَفسُدُ أحوالُ النَّاسِ.

وأول الأغلمة كان في سنة ستين وهو كذلك فإن يزيد بن معاوية استخلف فيها وبقي إلى سنة أربع وستين؛ فمات ثم ولي ولده معاوية، ومات بعد أشهر.

فقه الحديث:

دل هذا الحديث على ما يأتي:

أولاً: إخباره - ﷺ - عن هلاك كثير من الصحابة وآل بيته الأطهار في المعارك الدامية التي قام بها ضدهم الملوك الجبابرة من شباب قريش وعلى رأسهم يزيد بن معاوية الذي وقعت في عصره وقعة الحَرَّة واستباحة المدينة.

ثانياً: أن إخباره - ﷺ - عن هذه المآسي الدامية من علامات نبوته؛ فقد أوحى تعالى بها إليه قبل وقوعها يقظة أو مناماً، وقد قتل في وقعة الحَرَّة أكثر من سبعمائة من وجوه قريش كما قتل من عامة الناس رجال ونساء أكثر من عشرة آلاف، وسبوا الذرية، واستباحوا الفروج، وأمروا بقتل كل من لم يبايع يزيداً.

ثالثاً: الهلاك إما بسفك الدماء، أو بهلاك الأديان كما تفرع عن بني أمية، وبني العباس بغض الآل، وكراهة الأكثر لهم، وعدم الرعاية لحقوقهم.

رابعًا: وفيه ما يدل على أن ولاة الجور والخونة لعهود الله ليسوا من أمته.

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ: وَقْتِ الْعِشَاءِ وَتَأْخِيرِهَا، (٦٣٨).

الحديثِ الثامن والعشرون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّـاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَهَا، شِـبْرًا بِشِـبْرٍوَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَقِيلَ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ»[1].

الشرح:

للمُسلِمِ هُويَّتُه التي تُميِّزُه عن غيرِه، وشَريعتُه التي فضَّلَه اللهُ بها على العالَمِين، وقدْ كان النَّبيُّ ﷺ حَريصًا على بَقاءِ هذا التَّميُّزِوالتَّفضيلِ.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُالنَّبيُّ ﷺ بما يكونُ عليه حالُ أُمَّتِه في فتْرةٍ مِنَ الفتراتِ التي تَأتي بعْدَ زَمانِه ﷺ ، وهي مُتابَعةُ أهلِ الأهواءِ والبِدعِ.

الأخذ: بفتح الألف وسكون الخاء على الأشهر هو السيرة، يقال أخذ فلان بأخذ فلان أي سار بسيرته.

والقرون: جمع قرن بفتح القاف وسكون الراء: الأمة من الناس.

فارس والروم: كانوا إذ ذاك أكبر ملوك الأرض و أكثرهم رعية وأوسعهم بلادا.

أخبر(ﷺ) أن أمته قبل قيام السـاعة يتبعون المحدثات من الأمور، والبدع والأهواء المضـلة كما اتبعتها الأمم من فارس والروم حتى يتغير الدين عند كثير من الناس، وقد أنذر(ﷺ) فى كثير من حديثه أن الآخر شـر، وأن السـاعة لا تقوم إلا على شـرار الخلق، وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من المسلمين لا يخافون العداوات، ويحتسبون أنفسهم على الله فى القول بالحق، والقيام بالمنهج القويم فى دين الله.

وفي هذا الحديثِ:

مُعجزةٌ لِرسـولِ اللهِ ﷺ ؛ فقدْ وقَعَ ما أخبَرَ به النَّبيُّ ﷺ ، وانتشَـرَ ذلك في الأزمنةِ المتأخِّرةِ؛ مِن اتِّباعِ كَثيرٍ مِن المُسلِمينَ لأعداءِ اللهِ تعالَى في عاداتِهم وتَقاليدِهم وسُلوكيَّاتِهم، فقلَّدوهم في مَلابِسِهم وشَعائرِهم، وقَلَّدوهم في أعيادِهم، وفيما همْ عليه مِن أخلاقٍ ذَميمةٍ، وعاداتٍ فاسدةٍ تُخالِفُ شَريعةَ الإسلامِ المُطهَّرةَ.

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، (٧٣١٩).

الحَديثِ التاسع والعشرون

عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، سَمِعْتُ زَهْدَمَ بْنَ مُضَرِّبٍ، سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، - قَالَ عِمْرَانُ فَلاَ أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلاَ يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ "[1].

الشرح:

فاضَلَ النَّبيُّ ﷺ بين المُسلِمين على أساسِ قُوَّةِ التدَيُّنِ وقُوَّةِ الإيمانِ، كما فاضَلَ في أحاديثَ مُتعَدِّدةٍ بين أصحابِه وغيرِهم .

أهل قَرْني، وهم الصَّحَابة.

والقرن: أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويقال إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي، أو رئيس يجمعهم على ملة أو مذهب أو عمل، ويطلق القرن على مدة من الزمان.

قَوْله: (ثمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ) أَي: الْقرن الَّذِي بعدهمْ، وهم التابعون.

وهذا صريح في أن الصحابة أفضل من التابعين، وأن التابعين أفضل من تابعي التابعين، وهذا مذهب الجمهور.

وحديث للعامل منهم أجر خمسين منكم لا دلالة فيه على أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة.

وأفضلية الصحابة، وهم القرن الأول على من بعدهم، لا تخفى، ويبطل قول من زعم أنه يكون فيمن بعدهم أفضل منهم، أو مساو لهم.

وأما أفضلية من بعدهم، بعضهم على بعض، فبحسب قربهم من القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفتح الأمصار، وإخماد كلمة الكفر. ولا خفاء: أن الذي كان من ذلك في قرن التابعين كان أكثر وأغلب مما كان في أتباعهم، وكذلك الأمر في الذين بعدهم.

فالصَّحابةُ همْ أفضلُ المسلمينَ؛ لأنَّهم عاصَروا النَّبيَّ ﷺ ووضَّح لهمْ أمورَ الدِّينِ وأخَذُوه عنه مُباشرةً، فهم أفضلُ الناسِ عِلمًا بسُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ ومقاصدِ التَّشْريعِ، وعلى أَيديهمْ تمَّ نَشْرُ الدينِ في الفُتوحاتِ والغَزواتِ، ثمَّ أخذَ التابِعونَ العِلمَ مِنهمْ وتابَعوا مسيرةَ الجِهادِ، وهكذا إلى أن يتباعدَ الزَّمانُ عنْ زمانِ النبوَّةِ فيبعُدونَ عن الهَدْيِ والسنَّةِ وصحيحِ الدِّينِ شيئًا فَشيئًا. ثُمَّ يأتي بَعْدَهم قَومٌ يَنذِرونَ، والنَّذْرُ هو إيجابُ المرْءِ فِعلَ أمْرٍ على نَفْسِه لم يُلزِمْه به الشَّارعُ، كأنْ يقولَ الإنسانُ: علَيَّ ذَبيحةٌ، أو أتصدَّقُ بكذا إنْ شفَى اللهُ مَريضي؛ فهو في صُورةِ الشَّرطِ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ومع

---

[1] صحيح البخاري: كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، بَابُ فَضَائِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،(٣٦٥٠).

ذلك لا يوفون بهذا النَّذرِ إن تحقَّق مَطلَبُهم. «ويَخونونَ» فيُضَيِّعون الأماناتِ «ولا يُؤْتَمَنونَ»؛ لِأَنَّهُم يَخونونَ خِيانةً ظاهِرةً، بِحَيثُ لا يَأْمَنُهم أحَدٌ بعْدَ ذلكَ، «ويَشهَدونَ ولا يُسْتَشْهَدونَ»، أي: يَتَحمَّلونَ الشَّهادةَ بِدونِ التَّحميلِ، أو يُؤدُّونها بِدونِ الطَّلَبِ، استِهْتارًا وليسَ منْ بابِ الحِرصِ على إيصالِ الحقوقِ لأصحابِها.

والمبادرةُ إلى الشَّهادةِ الصَّحيحةِ مِن أجْلِ إظهارِ الحَقِّ، وإعانةِ المظلومِ، ودَفْعِ الظُّلمِ عنه، فإنها عمَلٌ صالحٌ يُؤجَرُ ويثابُ عليه صاحِبُه، والأحاديثُ يُفَسِّرُ بَعْضُها بعضًا. ومن علامةِ هؤلاء الضَّالِّين أنْ يَظهَر فيهم السِّمَنُ، وهو كَثرةُ اللَّحمِ والشَّحمِ في الأجسامِ، أو هُم يَتكثَّرون بِما لَيْسَ فيهم مِن الشَّرَفِ، أو يَجمَعونَ الأموالَ أو يَغفُلونَ عن أمْرِ الدِّينِ.

وفي الحَديثِ:

١- إشارةٌ إلى لُزومِ اتِّباعِ سَبيلِ القُرونِ الثَّلاثةِ الأُولى؛ فإنَّ مَن قَرُبَ زَمَنُه مِن زَمنِ النُّبوَّةِ فهو أَوْلَى بالفضْلِ والعِلمِ والتَّأسِّي والاقتداءِ بِهَدْيِ النَّبيِّ ﷺ.

٢- وفيه: ذمُّ التَّساهُلِ في أُمورِ الشَّهاداتِ والأَيْمانِ.

الحديث الثلاثون

عَنْ أَبِي ذَرٍّرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي - أَوْ قَالَ: بَشَّرَنِي - أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ " قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»[1].

الشرح:

كان النَّبيُّ ﷺ يحَذِّرُالنَّاسَ مِن كُلِّ شَرٍّ، ويُعَلِّمُهم كُلَّ خيرٍ، ويُصَوِّبُ لهم المفاهيمَ السَّائِدةَ بينهم على غيرِالحقيقةِ، وعَلَّمَنا أنَّ الإيمانَ الخالِصَ بالله ينفَعُ صاحِبَه وإن ارتكب بعضَ المعاصي.

وفي هذا الحديث:

١- بيان لما قاله العلماء بأنه لا خلاف بين أئمة المسلمين أنه من قال: لا إله إلا الله، ومات عليها أنه لابد له من الجنة، ولكن بعد الفصل بين العباد، ورد المظالم إلى أهلها.

٢- وفيه: أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان؛ فإن غيرالمؤمن لا يدخلها، وأربابها لا يخلدون في النار، و اقتصرمن الكبائرعلى الزنا والسرقة؛ لأن الحق إما لله، أوللعباد؛ فأشاربالزنا إلى الأول، وبالسرقة إلى الثاني.

٣- وفيه: فَضْلُ اللهِ على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأنَّ مُرتكِبَ الكَبيرةِ مِن المُوحِّدين غيرُمُخلَّدٍ في النَّارِ.

٤- وفيه: استِفهامُ التَّابعِ مِن مَتبوعِه على ما يَحصُلُ له فائدةٌ دِينيَّةٌ، أوعِلميَّةٌ، أوغيرُذلك، والمُراجَعةُ في العِلمِ بما تَقرَّرَعندَ الطَّالبِ في مُقابَلةِ ما يَسمَعُه ممَّا يُخالِفُ ذلك.

تأمل جواب وهب بن منبه – رحمه الله-حين قيل له:

أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟

قال بلى. ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتِحَ لك، وإلا لم يفتح لك، وما أسنان المفتاح إلا العمل مع الإيمان.

---

[1] صحيح البخاري: كتاب الجنائز، بَابُ مَا جَاءَ فِي الجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،(٣٦٥٠)، ورواه مسلم في الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة رقم،(٩٤).

الحديث الحادي والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[1].

الشرح:

حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ من أعظَمِ مَظاهرِ الإيمانِ، وقدْ حثَّ الشَّرعُ عليه ورغَّبَ فيه تَرغيبًا أكيدًا، ويَختلِفُ المسْلِمون في دَرَجةِ مَحبَّتِهم له باختلافِ دَرَجةِ إيمانِهم وطاعاتِهم، فكلَّما زادَ اتِّباعُ المسْلمِ لنَبيِّه ولِسُنَّتِه دلَّ ذلك على زِيادةِ مَحبَّتِه له ﷺ ، وعلى زِيادةِ إيمانِه كذلك.

(من أشد أمتي لي حبا نَاس يكونُونَ بعدِي يود أحدهم لَو رَآني بأَهْله وَمَاله) أَي يتَمَنَّى أحدهم ان يكون مفديا لي بأَهْله لَو اتّفق رُؤْيَتهمْ إياي ووصولهم إِلي.

وَهَذَا من معجزاته؛ فَإِنَّهُ إِخْبَار عَن غيب.

في هذا الحديث من الفقه:

أن المؤمنين من أمته إذا ذكر لهم عنه - ﷺ - ما كان من مقاماته ومواطن الحروب التي اشتدت، وضيق العيش الذي أصابه - ﷺ -، وغير ذلك، مما يود كل مؤمن أنه لو كان قد رآه ففاز بالنصر له في الحرب، والمواساة في الشدة، أو السؤال له عما يختلج في صدره من المسائل، أو التعلم منه، أو التبرك برؤيته، إلى غير ذلك، مما فاز به أصحابه دون غيرهم؛ فكل واحد من المؤمنين يود لو رآه، فلا يبقى له أهل ولا مال، فيؤثر رؤيته على ذلك لقوة إيمانه.

وسئل على بن أبي طالب - رضي الله عنه - كيف كان حبكم لرسول الله - ﷺ - قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا و آبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

فمن علامات محبته - ﷺ -: استكمال سنته ونصرها والذب عنها، و اتباع أقواله و أفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطة ومكرهه.

فوائد من الحديث:

١- فَضلُ تَمنِّي رُؤيةِ النَّبيِّ ﷺ بعْدَ مَوتِه، وفَضلُ بَعضِ مَن يَأْتي بعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ومَدى تَعلُّقِ قُلوبِهم به، وأنَّ ذلك دَليلٌ على صِدقِ مَحبَّتِه، وشِدَّتِها.

٢- وفيه: بَيانُ فضْلِ رُؤيتِه ﷺ وعَظيمِ مَنزلتِها، وأنَّها أعظَمُ وأجَلُّ ممَّا يُعطاهُ الإنسانُ مِن الأهلِ والمالِ وغيرِ ذلكَ مِن أصنافِ نَعيمِ الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الأشياءَ نِعَمٌ فانيةٌ زائلةٌ، وأمَّا رُؤيتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ففيها الفوزُ الدَّائمُ، والنَّعيمُ المقيمُ؛ لأنَّها مُوصِلةٌ إلى الجنَّةِ.

٣- وفيه: دَليلٌ مِن أدلَّةِ صِدقِ النَّبيِّ ﷺ ؛ إذْ قدْ ظَهَر ذلك للعِيانِ كَثيرًا، ووُجِد هذا الصِّنفُ مِن النَّاسِ بعْدَ وَفاةِ النَّبيِّ ﷺ إلى يَومِنا هذا.

---

[1] رواه مسلم في الإيمان باب فِيمَنْ يَوَدُّ رُؤْيَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ رقم،(٢٨٣٢).

الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ شَهِيدًا»[1].

الشرح:

خصَّ اللهُ سُبحانَه وتَعالَى بعضَ بِقاعِ الأرضِ بِبَركاتٍ لم يَجعَلْها في غيْرِها، وجعَلَ بعضَها مَوطِنَ الشُّرورِ والفِتنِ، وبعضَها مَوطِنَ الخيرِ والبَرَكاتِ، وقدِ اختُصَّتِ المدينةُ النبويَّةُ بكَثيرٍ منَ الخيرِ والبَرَكةِ والفَضلِ.

ولو أدرك الأولون ما انتهي إليه الآخرون كما عليه أهل زماننا الغافلون؛ لحكموا بحرمة المجاورة في الحرمين الشريفين من شيوع الظلم، وكثرة الجهل، وقلة العلم، وظهور المنكرات، وفشو البدع والسيئات، وأكل الحرام والشبهات.

(لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها) أي: من الجوع والحر.

(أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة) : قيل مخصوص بزمان حياته - ﷺ - وقيل: عام.

في الحديث:

١- دليل على فضل سُكنى المدينة، وأن ذلك محمول عندهم على استمرار هذا الفضل بعد وفاة النبي ﷺ وإلى يوم القيامة.

٢- بيانُ فَضلِ الصَّبرِ على الشِّدَّةِ والجوعِ في المدينةِ.

٣- بيانُ فَضلِ النَّبيِّ ﷺ على أهْلِ المدينةِ.

٤- قال القاضي: وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعالمين في القيمة، وعن شهادته على جميع الأمة.

---

[1] رواه مسلم: باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، رقم(١٣٧٨).

الحديث الثالث والثلاثون

عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، قَالَ: قُلْنَا لِعَمَّارٍ: أَرَأَيْتَ قِتَالَكُمْ، أَرَأْيًا رَأَيْتُمُوهُ؟ فَإِنَّ الرَّأْيَ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، أَوْ عَهْدًا عَهِدَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالَ: مَا عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ: «إِنَّ فِي أُمَّتِي» قَالَ شُعْبَةُ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: حَدَّثَنِي حُذَيْفَةُ، وَقَالَ غُنْدَرٌ: أُرَاهُ قَالَ: «فِي أُمَّتِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا، حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ، سِرَاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ فِي أَكْتَافِهِمْ، حَتَّى يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ»[1].

الشرح:

بَلَّغَ النَّبيُّ ﷺ شَرائعَ الإسلامِ للنَّاسِ كافَّةً، ولم يَخُصَّ أحدًا بتَشريعٍ دونَ الأُمَّةِ.

تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ: الدبيلة في الأصل تصغير الدبل، وهي الداهية، فأطلقت على قرحة رديئة تحدث في باطن الإنسان، ومعناه: تميتهم وتغطيهم فى قبورهم. وأصل الكفت: الستر والضم ومنه: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا} وفسر فى الحديث " الدبيلة " بسراج من نار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم، أى يظهر ويعلو. وقال ابن دريد: الدبيلة داء تجتمع فى الجوف، ويقال فيه: الدبلة.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ التَّابعيُّ قَيسُ بنُ عُبادٍ أنَّ عَمَّارَ بنَ ياسرٍ رَضيَ اللهُ عنه سُئِلَ عنِ القِتالِ الَّذي كان بَينَ عَليِّ بنِ أبي طالبٍ ومُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رَضيَ اللهُ عنهما على أمرِ الخلافةِ، ومَقتَلِ عُثمانَ بنِ عفَّانَ رَضيَ اللهُ عنه، وكان عمَّارٌ رَضيَ اللهُ عنه يُقاتِلُ إلى جانبِ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، فَقيلَ لَه: «أَرأيْتَ قِتَالَكُم» أي: أخبِرْنا عن شَأنِ قِتالِكم الَّذي قاتَلْتُموه مع عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، «أَرَأيًا رَأيتُمُوه» أي: كان هذا اجتهادًا اجتَهَدْتُموه وظَننتُم أنَّه حقٌّ، «فإنَّ الرَّأيَ يُخطِئُ ويُصيبُ»، أي: فلَو كانَ هَذا القِتالُ صادرًا عنِ اجتِهادٍ ومُجرَّدَ رَأيٍ؛ فإنَّه عُرضةٌ للخَطأِ والصَّوابِ، أمْ هل كان هذا القتالُ عَهدًا عَهِدَه إليكم رَسولُ اللهِ ﷺ ؟

أي: أمرًا خَصَّكم به دونَ غَيرِكم فأَنْتُم في القيامِ به والعَملِ بِعهدِ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

فبَيَّنَ له عَمَّارٌ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لم يَخُصَّهم بشَيءٍ مِنَ الوَحيِ والشَّرعِ ولَم يَعهَدْ إليهِمْ بشَيءٍ في خُصوصِهم غَيرِ الَّذي عَهِدَه للأُمَّةِ في عُمومِها، ثُمَّ أخبَرَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ في أُمَّتِي» وفي روايةٍ أُخرى لمسْلمٍ: «في أصحْابي» أي: في زَمنِه وعَهدِه، وليْسوا أصحابَه على الحقيقةِ، ولكنَّهم فيما يَبْدو للنَّاسِ أنَّهم أصحابُه، وليْسوا كذلك، «اثنا عَشَرَ مُنافقًا» والمرادُ بهم: الَّذين يُظهِرون الإسلامَ ويُسِرُّون الكفْرَ ومُحارَبةَ اللهِ ورَسولِه، جَزاؤهم أنَّهم لا يَدخُلونَ الجَنَّةَ ولا

[1] رواه مسلم: كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ، رقم(٢٧٧٩).

يَجِدونَ رِيحَها حتَّى يَدخُلَ الجَملُ في ثُقبِ الإبْرَةِ، والمَعنَى: لا يَدخُلون الجنَّةَ أَصلًا؛ فَكَما أنَّ الجَملَ لا يَدخُلُ في ثُقْبِ الإبرَةِ، فكَذلكَ لا يَدخُلُ هَؤلاءِ الجَنَّةَ.

ثمَّ أخبَرَ ﷺ أنَّ ثمانيةً مِن هؤلاء المنافِقِين «تَكفيكَهمُ» أي: تَدفَعُ شَرَّهم «الدُّبَيْلَةُ» وفُسِّرَت في الحديثِ بسِراجٍ مِن نارٍ، وهي خُرَّاجٌ عَظيمٌ يَكونُ في أَكتافِهم حتَّى تظهَرَ مِن صُدورِهم أَثَرُ تِلك الحَرارةِ وشِدَّةِ لَهبِها؛ فتَكونَ كشُعلةٍ مِن نارٍ تَدخُلُ في جَوفِهم، فتَقتُلُ صاحبَها غالبًا.

وحاصلُ جَوابِ عمَّارٍ رَضيَ اللهُ عنه بهذا الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبَرَ بأنَّ بعْضَ المنافِقِين ممَّن ظَهَروا في زَمنِه يَبْقَون بعْدَه؛ يُثيرون الفتنَ بيْنَ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ ، فكأنَّ عمَّارًا رَضيَ اللهُ عنه أشارَ إلى أنَّ مَن أقام حَربًا على عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه؛ إنَّما فَعَل ذلك بتَدْسيسٍ مِن هؤلاء المنافِقِين، وكان عليٌّ رَضيَ اللهُ عنه على الحقِّ، فوَجَب علينا نَصرُه ومُؤازرتُه.

فوائد من الحديث:

١- بيان ما كان الله تعالى يُطلع نبيّه - ﷺ - على أعيان المنافقين، فقد أعلمه الله عز وجل أعيان اثني عشر منهم، وأعلمه ما يكون إليه عاقبة أمرهم.

٢- بيان فضل الصحابيّ الجليل حُذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما-، حيث كان - ﷺ - خصّه بمعرفة أعيان بعض المنافقين، وأمره أن يخبر بهم أحدًا، فكان لا يُخبر بهم، حتى إن عمر -رضي الله عنه- كان إذا مات شخص تبع حذيفة، فإن صلى عليه؛ صلى عليه، وإلا تركه، وكان -رضي الله عنه- صاحب سرّ رسول الله - ﷺ - صحبة النبي - ﷺ - المعتد بها هي المقترنة بالإيمان، ولا يصح أن يطلق الصحابي إلا على من صدق في إيمانه، وظهرت منه أمارته دون أن أغمض عليهم بالنفاق، فإضافتها إليهم لا تجوز إلا على المجاز لتشبههم بالصحابة، وتسترهم بالكلمة، وإدخالهم أنفسهم في غمارهم، ولهذا قال: في أصحابي ولم يقل من أصحابي.

٣- بيان ما كان عليه السلف في تتبّع الأمور، وسؤال الصحابة -رضي الله عنهم- عن حقيقتها، حتى يتوصّلوا إلى الحقيقة، فيُعطوا كلّ ذي حقّ حقّه، ويعذروا، ويستغفروا لمن أخطأ في اجتهاده، وهكذا ينبغي للمسلمين أن يسلكوا مسلكهم، ولا يقعوا في بعض الصحابة -رضي الله عنهم- بأهوائهم، فيجرحوهم، فيقعوا في خطر عظيم.

الحديث الرابع والثلاثون

عن أَبي مَالِكٍ الْأَشْـعَرِيَّ، قال: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ " وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»[1].

الشرح:

كان النَّبيُّ ﷺ حَريصًا عَلى إخراجِ أُمَّتِه مِن الجاهليَّةِ بكُلِّ ما فِيها مِن شُرورٍ وآثامِ شِركٍ، إلى الإسلامِ وشَرائعِه وَما فيهِ مِن خَيرٍ وتَوحيدٍ.

وَفي هذا الحديثِ:

يَرصُدُ النَّبيُّ ﷺ أُمورًا كانت وَلا تزالُ عالقةً ببَعضِ النَّاسِ يَأتونَ بِها، وهيَ مِن أُمورِ أهلِ الجاهليَّةِ، فَحذَّرَنا مِنها، وأنَّ مَن أَتى بواحدةٍ مِنها؛ فقدْ أَتى بإحْدَى الصِّفاتِ الجاهليَّةِ، ولا بدَّ لَه مِن تَركِها إلى ما شَرَعَه الإسلامُ فيها وفي أَمثالِها؛ فيُخبِرُ ﷺ بوُجودِ أَربعِ خِصالٍ في أُمَّةِ الإسلامِ، هي مِن أُمورِ أهلِ الجاهليَّةِ وخِصالِهِمُ المُعتادةِ، وأخبَرَ أنَّ هذِه الخِصالَ تَدومُ في الأُمَّةِ لا تَترُكُها كما تركَت غيْرَها مِن سُننِ الجاهليَّةِ؛ فإنْ تَرَكَها طائفةٌ، جاءَ وتَمسَّك بها آخَرون.

وأَوَّلُ هذِه الأُمورِ: «**الفخرُ في الأَحسابِ**»، وهو افتخارُ المرْءِ ومُباهاتُه وتَمدُّحُه بالخِصالِ والمَناقبِ والمكارمِ؛ إمَّا فيه أو في أَهلِه، والحَسَبُ ما يَعُدُّه الرَّجلُ منَ الخِصالِ الَّتي تَكونُ فيهِ، كالشَّجاعةِ والفَصاحةِ وغيرِ ذلكَ، ومَعنى الفَخرِ في الأَحسابِ هوَ التَّكبُّرُ والتَّعظُّمُ بعَدِّ مَناقبِه ومآثرِ آبائِه، وهذا يَستلزِمُ تَفضيلَ الرَّجلِ نَفْسَه عَلى غيرِه ليُحقِّرَه، وعندَ أبي داودَ: قال ﷺ: «قدْ أذْهبَ اللهُ عنْكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخْرَها بالآباءِ، مؤمنٌ تَقيٌّ، وفاجرٌ شَقيٌّ، والنَّاسُ بنو آدمَ، وآدمُ مِن تُرابٍ.«

وثاني الأُمورِ المُستقبَحةِ: «الطَّعنُ في الأنسابِ»، ويُقصَدُ به إدخالُ العَيبِ في أنسابِ النَّاسِ، كالتَّعييرِ بالنَّسبِ، أو أنْ يَنفِيَ نَسبَه عن أبيهِ، وهيَ دَعوَى مُنتِنةٌ؛ لِمَا فيها مِن شقِّ الصَّفِّ المُسلِمِ، ولِما تُثيرُه مِن فِتنٍ وشُرورٍ، ورمْيٍ لأعراضِ النَّاسِ.

والأَمرُ الثَّالثُ: «الاستسقاءُ بالنُّجومِ»، ويُقصَدُ به الدُّعاءُ وطَلَبُ السُّقيا بنُزولِ المطرِ، باعتقادِ أنَّ النُّجومَ سَببٌ في ذلكَ، كَما كانوا يَقولونَ في الجاهليَّةِ: مُطِرْنا بنَوءِ كَذا، واعتقادُ أنَّها المؤثِّرةُ في نُزولِ المطرِ حَقيقةً كُفرٌ. والمَطرُ مِن رَحمةِ اللهِ بعِبادِه، ويَنزِلُ بَقدَرِه، وهوَ مِنَ الأُمورِ الَّتي قالَ اللهُ فيها: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤] .

والأمرُ الرَّابعُ: «النِّياحةُ»، وهيَ البُكاءُ عَلى الميِّتِ بصِياحٍ وَعويلٍ وَجزَعٍ، وعدِّ شَمائلِ الميِّتِ ومَحاسنِه، مِثلَ: وا شُجاعاه! وا أَسدَاه! وا جَبَلاه!

ثُمَّ حذَّرَ النَّبيُّ ﷺ النِّساءَ النَّائحاتِ إذا لم يَتُبْنَ عنِ النِّياحةِ قبْلَ مَوتِهنَّ، فَقال: «والنَّائحةُ إذا لم

---

[1] رواه مسلم: باب التَّشْدِيدِ فِي النِّيَاحَةِ، رقم(٩٣٤).

تَتُبْ قبْلَ» حُضورِ «مَوتِها، تُقامُ يومَ القِيامةِ»، فتُوقَفُ وتُحشَرُ النَّائحةُ الَّتي لم تَتُبْ بيْنَ أَهلِ المَوقفِ للفَضيحةِ يومَ القيامَةِ، جَزاءً على قِيامِها في المَناحةِ، وَعليها قَميصٌ منَ القَطِرانِ، وهو النُّحاسُ المُذابُ، أو هو طِلاءٌ يُطْلى به، وقيل: دُهنٌ يُدْهَنُ به الجَملُ الأجرَبُ، فيُحرِقُ الجرَبَ، وقدْ تَبلُغُ حَرارتُه الجوْفَ، «ودِرعٌ مِن جَربٍ»، والدِّرعُ نوعٌ مِن قُمصانِ النِّساءِ، فيَكونُ عَليها قَميصٌ آخَرُ مِن جَرَبٍ، والمَعنى: أنَّ كُلَّ جِلدِها يَكونُ جَرَبًا بمَنزلةِ الدِّرعِ، بحيثُ يُغطِّي جِلدَها تَغطيةَ الدِّرعِ ويَلتزِقُ بِها، وإنَّما قُيِّد التَّوبةَ بأنْ تكونَ قبْلَ الموتِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ مِن شَرطِ التَّوبةِ أنْ يَتوبَ التَّائبُ وهوَ يُؤمِّلُ البَقاءَ، ويُمكنُ أنْ يَتأتَّى منه العملُ الَّذي يَتوبُ مِنه، ومِصداقُ ذَلكَ في كِتابِ اللهِ: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ}[النساء: ١٨] .

وهذا العذابُ يكونُ على النِّياحةِ والتَّعديدِ؛ لِما فيهما مِن إظهارِ الاعتراضِ على قدَرِ اللهِ، أمَّا بُكاءُ الحُزنِ والرَّحمةِ على الميِّتِ، فلا شَيءَ فيه؛ فقدْ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلوبِ عِبَادِه، وإنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِن عِبَادِه الرُّحَمَاءَ» متَّفقٌ عليه.

فوائد من الحَديثِ:

١. فيه عَلامةٌ مِن عَلاماتِ نُبوَّتِه ﷺ

٢. وفيه: التَّحذيرُ مِن الفَخرِ بالأَحسابِ، والطَّعنِ في الأَنساب.

٣. وفيه: الدَّعوةُ إلى حِفظِ أَعراضِ النَّاسِ وعَدمِ الخَوضِ فيها.

٤. وفيهِ: أنَّ قَدْرَ الإنسانِ تَكونُ بقَدْرِ شَخصِه وأَفعالِه، ولَيس بِما فَعَلَه آباؤُه.

٥. وفيهِ: تحريم النياحة على الميت، قال النوويّ - رَحِمَهُ اللهُ -: وهو مجمع عليه.

٦. وفيه: أنَّ المَطرَ مِن عندِ اللهِ سُبحانه وَلا دَخْلَ للنُّجومِ فيه، فَلا تُطلَبُ السُّقيا إلَّا مِنَ الخالقِ القادرِ عَلى إنزالِ المَطرِ.

٧. صحة التوبة وقبولها ما لَمْ يمت المكلّف، أو يصل إلى حدّ الغرغرة.

الحديث الخامس والثلاثون

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَبْنَ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: " فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ "[1].

شرح الحديث

أُمَّةُ الإسلامِ شَأنُها عَظيمٌ؛ فإنَّها آخِرُ الأُمَمِ في الدُّنيا، ونَبيُّها خاتَمُ الأنبياءِ، وقد أُرسِلَ للنَّاسِ كافَّةً بَشيرًا ونَذيرًا، ودَعوتُه مُمتدَّةٌ إلى آخِرِ الزَّمانِ، فالأُمَّةُ الإسلاميَّةُ ستَظلُّ هي الدَّاعيَ الأخيرَ إلى اللهِ مُتمَسِّكةً بالحقِّ المبينِ، وستَتَكالَبُ عليها الأُممُ بِسَببِ هذا الحقِّ.

وفي هذا الحديث:

يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ أنَّه ستَظلُّ جماعةٌ من أُمَّةِ الإسلامِ يُجاهِدونَ أعداءَ الدِّينِ في سَبيلِ نُصرةِ الحقِّ والدِّينِ، رافِعينَ رايَةَ الإسلامِ فَوقَ كلِّ الرَّاياتِ، وهُم مُنتَصِرونَ غالِبونَ، وسيَظلُّونَ على هذه الحالِ طائفةً بعدَ طائفةً، إلى إتيانِ عَلامةِ قُربِ يومِ القيامةِ، وهيَ الرِّيحُ الَّتي تَقبِضُ رُوحَ كلِّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ، كَما في صَحيحِ مُسلِمٍ من حَديثِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضيَ اللهُ عَنهُ: «ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ ريحًا كَريحِ المِسْكِ، مَسُّها مَسُّ الحَريرِ، فلا تَترُكُ نفسًا في قلبِه مِثقالُ حبَّةٍ منَ الإيمانِ إلَّا قبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقى شِرارُ النَّاسِ، عَليهِمْ تَقُومُ السَّاعةُ».

وهذا مِمَّا يدُلُّ على أنَّ الحقَّ لا يَنقَطِعُ في أُمَّةِ الإسلامِ؛ فهُناك مَن يَتوارثُه جيلًا بعدَ جيلٍ، حتَّى يَنزِلَ عيسى ابنُ مريَمَ عليهما السَّلامُ منَ السَّماءِ، فيَقتُلَ الدَّجَّالَ، وعِندَ نُزولِه عَليه السَّلامُ سَيَكونُ تابعًا لشَريعةِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ الَّتي هيَ خاتَمةُ الشَّرائعِ، ولا يُتَّبَعُ غَيرُها حتَّى قيامِ السَّاعةِ، وهذا ما وضَّحَه بَقيَّةُ الحَديثِ، فيَقولُ أميرُ الطَّائفَةِ المؤمِنةِ لِعيسَى: «تَعَالَ صَلِّ لنا» إمامًا، فيَرفُضُ عيسى عَليه السَّلامُ، مُعلِّلًا ذَلكَ بأنَّ بعضَ أُمَّةِ الإسلامِ أُمَراءُ عَلى بعضٍ، فيؤُمُّ المسلِمُ أخاه المُسلمَ، وهذا من تَكريمِ اللهِ لأُمَّةِ الإسلامِ. وفي رِوايةِ أحمدَ من حَديثِ جابِرٍ رَضيَ اللهُ عَنهُ: «وإذا هُمْ بِعِيسَى، فيُقالُ: تَقدَّمْ يا رُوحَ اللهِ، فيَقُولُ: لِيَتقدَّمْ إمامُكمْ، فَلْيُصَلِّ بِكُمْ». وقيلَ: إنَّ تَركَ عيسى عليه السَّلامُ إمامةَ المُسلِمينَ في الصَّلاةِ معَ كونِه نَبيًّا؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ شَريعةَ الإسلامِ قد نُسِخَت بِنُزولِهِ؛ فهيَ الشَّريعةُ الباقيةُ إلى قيامِ السَّاعةِ.

فوائد من الحديث:

١. فيه عَلَمٌ من أعلامِ النُّبوَّةِ.

٢. بَيانُ نُزولِ عيسى عَليه السَّلامُ، وحُكمُه بِشَريعةِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ.

---

[1] رواه مسلم: باب نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم(١٥٦).

٣. بَيانُ فَضلِ اتِّباعِ سُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، ووَجه ذلكِ أنَّ هؤلاءِ الطَّائفةَ ما حصَلَ لهُم ذلكَ النَّصرُ، والثَّباتُ عَلى مُقاوَمةِ العَدوِّ، إلَّا بِسَببِ اتِّباعِهم سُنَّتَه ﷺ.

٤. بَيانُ فَضلِ هذه الأُمَّةِ، حَيثُ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أجارَها عَنِ الاتِّفاقِ عَلى الضَّلالِ، فَلا تَزالُ جَماعةٌ مُؤمِنةٌ إلى نِهايةِ الدُّنيا.

٥. فيه دلالةً على صحّة الإجماع؛ لأن الأمة إذا أجمعت على شيء، فقد دخلت فيهم هذه الطائفة المختصة بهذا الفخر العظيم، فكلّ الأمّة مُحِقّ، فإجماعهم حقّ، ويفيد هذا المعنى قوله عز وجل: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف: ١٨١].

قال النوويّ رحمه الله تعالى: وهو أصح ما استُدِلَّ به من الحديث على كون الإجماع حجةً.

٦. أن فيه معجزةً ظاهرةً للنبيّ - ﷺ -، فإنّ هذا الوصف ما زال - بحمد الله تعالى - من زمن النبيّ - ﷺ - إلى الآن، ولا يزال - بفضل الله تعالى - حتى يأتي أمر الله.

الحديث السادس والثلاثون

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ ، تَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي»، وَيَقُولُ، إِذَا رَأَى الْمَطَرَ: «رَحْمَةٌ»[1].

شرح الحديث

كان النَّبيُّ ﷺ يَخشَى على أُمَّتِهِ العذابَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وكان يُعلِّمُ أصحابَهُ أنَّ أمْرَ المؤمنِ مع اللهِ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ؛ حتَّى يَعمَلوا ولا يَتَّكِلوا على الإيمانِ والإسلامِ<

وفي هذا الحَديثِ تُخبِرُ أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنها لم تر لَهَوَاتِ رَسولِ اللهِ ﷺ عندما كان يَضحَكُ، واللَّهَاةُ: اللَّحْمَةُ المُتعلِّقةُ في أعلى الحَلْقِ، وهذا كِنايةٌ عن أنَّ ضَحِكَ رَسولِ اللهِ ﷺ لم يكُنْ بالضَّحِكِ الشَّديدِ، و إنما كان يَكْتفي النَّبيُّ ﷺ عِندَ ضَحِكِهِ بالتَّبسُّمِ. وأخبرت أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رضِيَ اللهُ عنها أنَّه ﷺ كان إذا رأى غَيْمًا -أي: سحابًا- أو ريحًا عُرِفَ في وَجْهِهِ الكَراهِيَةُ والخوفُ؛ وذلك خشيةَ أنْ تُصِيبَ أُمَّتَه عُقوبةٌ بذُنوبِ العُصاةِ. وفي رواية أخرى في الصَّحيحينِ ذكَرَت أنَّه إذا أمطَرَتِ السَّماءُ سُرِّيَ عنه، يعني كُشِفَ عنه ما خالَطَه مِنَ الخَوفِ والوَجَلِ. فسألت أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها، عن سَبَبِ ذلك، فقالَتْ: «يا رَسولَ اللهِ، إنَّ النَّاسَ إذا رَأَوُا الغَيْمَ فرِحوا؛ رَجاءَ أنْ يكونَ فيه المطَرُ»، أي: ظَنًّا منهم أنَّه يَحمِلُ لهم ماءً يَسْتَقُونَ مِنْهُ، «وأَراكَ إذا رأيْتَهُ»، أي: السَّحابَ «عُرِفَ في وَجهِكَ الكَراهيةُ؟!» أي: تَغيَّروجهُهُ وبَدَا عليه الخوفُ. فأجابها النَّبيُّ ﷺ قائلًا: «يا عائشةُ، ما يُؤْمِنِّي أنْ يكونَ فيه عَذابٌ؟» أي: ما يَجعَلُني آمِنًا مِن أنْ يكونَ فيه عَذابٌ مِنَ اللهِ تعالَى، إنَّ خَوْفي وكُرهي خَشْيَةَ أنْ يَكونَ بالسَّحابَةِ أو الرِّياحِ عَذابٌ مِنَ اللهِ عزَّوجلَّ على العِبادِ، «عُذِّبَ قَوْمٌ بالرِّيحِ» يَقصِدُ قَومَ عادٍ الَّذين أُرْسِلَ فيهم نبيُّ اللهِ هُودٌ عليه السَّلامُ؛ فقدْ أرسَلَ اللهُ عليهِمُ الرِّيحَ فأهلَكَتْهُمْ، «وقد رأى قومٌ العذابَ، فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنَا» أي: إنَّهم لَمَّا رَأَوُا السَّحابَ ظَنُّوا أنَّ به المطَرَ، قال اللهُ تَعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، والمُرادُ بالعارِضِ: السَّحابُ؛ وذلك لأنَّه يَعترِضُ السَّماءَ ويَحجُبُ رؤيتَها، فأجابَهُمُ اللهُ عزَّوجلَّ بقولِه: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف: ٢٤] ، وكان النَّبيُّ ﷺ يَخافُ مِنَ اللهِ أشَدَّ الخَوْفِ على ما له مِن كَرامَةٍ عليه، ولكنَّه خَوْفُ المؤمنِ الَّذي لا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ، وإذا كان النَّبيُّ ﷺ بهذه الدَّرجةِ مِنَ الخوفِ مِن رَبِّهِ، فيَنبغي أنْ يكونَ غَيرُه أشَدَّ خَوْفًا وحِرْصًا على المُداوَمَةِ على الطَّاعةِ وتَرْكِ المعصيةِ.

---

[1] رواه مسلم: باب التَّعَوُّذِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، وَالْفَرَحِ بِالْمَطَرِ، رقم(٨٩٩).

فإنْ قيلَ: كيف يَخشى النَّبيُّ ﷺ أنْ يُعذَّبَ القومُ وهو فيهم، مع قَولِ اللهِ تَعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [الأنفال: ٣٣] ؟

فالجَوابُ: أنَّ في الآيةِ احتِمالَ التَّخصيصِ بالمَذكورينَ، أو بوَقتٍ دُونَ وَقتٍ، أو أنَّ مَقامَ الخَوفِ يَقتَضي غَلَبةَ عَدَمِ الأمْنِ مِن مَكرِ اللهِ تعالَى، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في أغلَبِ الأحوالِ يُعلِّمُ أُمَّتَه، ومِن ذلك أنَّ الإنسانَ لا يَأمَنُ مَكرَ اللهِ، كما في قَولِ اللهِ تَعالى: {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩] .

والأولى أن يقال: خَشِيَ على من ليس هو فيهم أن يقع بهم العذاب، أما المؤمن فشفقة عليه؛ لإيمانه، وأما الكافر فلرجاء إسلامه، وهو - ﷺ - بُعِث رحمةً للعالمين.

فوائد الحَديثِ:

١. بَيانُ أنَّه لا يَنبَغي لِأحَدٍ أنْ يَأْمَنَ مِن عَذابِ اللهِ تعالَى.

٢. الاستِعدادُ بالمُراقَبةِ للهِ، وبالالتِجاءِ إليه عِندَ اختِلافِ الأحوالِ وحُدوثِ ما يُخافُ بسَبَبِه.

٣. تَذَكُّرُ ما يَذهَلُ المَرءُ عنه ممَّا وَقَعَ لِلأُمَمِ الخالية، والتَّحذيرُ مِنَ السَّيرِ في سَبيلِهِم؛ خَشيةَ وُقوعِ مِثلِ ما أصابَهم.

٤. شَفَقَةُ النَّبيِّ ﷺ على أُمَّتِه ورَأفَتُه بهم، كما وَصَفَه اللهُ تَعالى: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨] .

٥. بيان ما كان عليه النبيّ - ﷺ - من شدّة الخوف من الله تعالى.

٦. بيان أنه ينبغي الاستعداد بالمراقبة لله تعالى، والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال، وحدوث ما يُخاف بسببه.

٧. ما قيل: كان خوفه - صلى الله عليه وسلم - أن يعاقبوا بعصيان العصاة، وسروره لزوال سبب الخوف.

٨. استحباب الفرح والسرور عند نزول المطر؛ لأنه رحمة مهداة من الله تعالى لعباده، فينبغي أن يُفرَح به، كما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} [يونس: ٥٨].

٩. أنه ينبغي أن يتذكّر الإنسان، ولا يذهل ما وقع في الأمم الخالية، ويحذر من الوقوع فيما وقعوا فيه من المعاصي؛ لئلا يصيبه مثل ما أصابهم.

١٠. استحباب الدعاء عند هبوب الريح، لما في الرواية التالية.

١١. بيان ما كان عليه النبيّ - ﷺ - من كمال الشفقة، وشدّة الرأفة بأمته، كما وصفه الله -عَزَّ وَجَلَّ- بقوله: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} [التوبة: ١٢٨].

السابع والثلاثون

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟» فَقَالَ: " خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]، فَتْحُ مَكَّةَ، {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٣] "[1].

شرح الحديث:

أمر اللهُ تعالَى نبيَّه ﷺ أن يَذكُرَه ويُنزِّهَه عزَّوجلَّ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، وأن يطلُبَ المغفرةَ منه سُبحانَه وتعالَى دومًا، وقد امتثَل النبيُّ ﷺ ذلك؛ فكان دائِمَ الذِّكرِ والتسبيحِ والاستغفارِ لربِّه. وفي هذا الحَديثِ تُخبرُ أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُكثِرُ أن يقولَ في حالِ رُكوعِه وسجودِه أثناءَ الصَّلاةِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمْدِكَ»، أي: بتَوفيقِك لي وهِدايتِك وفَضلِك عليَّ سبَّحتُك لا بَحْولي وقُوَّتي، ولأنَّك مَوصوفٌ بصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ سبَّحَك المُسبِّحون، وعظَّمَك المُعظِّمون، أُنزِّهُك تَنزيهًا عن كلِّ نقصٍ وعيْبٍ، ويكونُ مَقرونًا بحَمدِك كما أمَرتَ، فالتَّسبيحُ هو التَّنزيهُ، وسُبحانَك، أي: بَراءةً وتنزيهًا لك مِنْ كُلِّ نَقْصٍ. ويقال: إنَّ التسبيحَ مأخوذٌ مِن: سَبَح الرَّجُلُ في الأرضِ؛ إذا ذهَب فيها، فيكونُ التَّسبيحُ على هذا المعنى بمعنى التعجُّبِ مِن المبالغةِ في الجَلالِ والعَظَمةِ والبُعدِ عن النَّقائِصِ. ثم يقولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغفِرْلي» يعني: امْحُ عنِّي ذَنْبي، وكان استِغفارُ النبيِّ ﷺ شُكرًا للهِ وطَلَبًا لرَحمتِه وفَضْلِه، ولعلَّ مَقصودَهُ ﷺ مِن ذلك تَعليمُ أُمَّتِه التَّوبةَ مِن الذُّنوبِ وطلَبَ المَغفرةِ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ قد غفَرَله ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ. وتُخبرُ أمُّ المُؤمِنينَ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّه ﷺ كان بذلك يَتأوَّلُ القرآنَ، يعني: يَفْعَلُ ما أُمِرَ به فيه، فيَتأوَّلُ ما جاءَ في القُرآنِ مِن الأمْرِ بالتَّسبيحِ والاستِغْفارِ في نحوِ قولِه تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [النَّصر:٣]

قوله: (فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا) قال العلامة ابن القيم في "الهدي": كأنه أخذه من قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْهُ}؛ لأنه كان يجعل الاستغفار في خواتم الأمور، فيقول إذا سلم من الصلاة: "أستغفر الله"

---

[1] رواه مسلم: بَابُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، رقم(٤٨٤).

ثلاثًا، وإذا خرج من الخلاء قال: "غفرانك"، وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ} [البقرة: ١٩٩] الآية.

قال الحافظ: ويؤخذ أيضًا من قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}، فقد كان يقول عند انقضاء الوضوء: "اللهم اجعلني من التوابين".

في الحَديثِ: الدُّعاءُ في الرُّكوعِ والسُّجود.

الحديث الثامن والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

شرح الحديث

مِن شَنائعِ الأمورِ الَّتي يَغفُلُ عنها كَثيرٌ مِن النَّاسِ أنَّهم ربَّما يُحسِنون العباداتِ، إلَّا أنَّهم يَقترِفون معها الذُّنوبَ، والَّتي منها ما يَتعلَّقُ بحُقوقِ العبادِ، وسَوفَ يُحاسَبُ كلُّ إنسانٍ يومَ القيامةِ على ما عَمِل مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.

وفي هذا الحديثِ سألَ النَّبيّ ﷺ أصحابَهُ رَضيَ اللهُ عنهم: «أَتدْرونَ»، أي: أتعلَمونَ «ما المُفلِسُ» وما حَقيقتُه؟

وهذا الاستفهامُ للتَّقريرِ وإخراجِ الجوابِ مِن المخاطَبِ؛ لِيَبني عليه الحُكمَ المرادَ، ولمَّا كان المقصودُ السُّؤالَ عن الوصفِ وليْس عن الذَّاتِ عبَّرَ بـ«ما» بدَلَ «مَن»، فأجابوا: المُفلِسُ فِيما بيْننا وفيما نَعرِفُه هو مَن لا يملكُ مالًا، ولا متاعًا، أي: مِمَّا يَحصُلُ به النَّقدُ وما يُتمتَّعُ به مِنَ حَوائجِ وأغراضِ الدُّنيا، مثلُ: الأقمشةِ والجواهرِ والْمَواشي والعبيدِ، وأمثالِ ذلك، والحاصلُ: أنَّهم أجابوا بما عندَهم مِنَ العِلمِ بِحسَبِ عُرْفِ أهْلِ الدُّنْيا، كما يدُلُّ عليه قولُهم: «فِينا»، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتِي»، أي: المفلسُ الحقيقيُّ، أوِ المُفْلِس في الآخرةِ، هو «مَن يأْتي يوْمَ القيامةِ بِصيامٍ وصَلاةٍ وزكاةٍ» مَقبولاتٍ قدْ أدَّاها كما أمَرَه اللهُ، وذِكرُ هذه العباداتِ ليْس للحصرِ، بلْ هو تَمثيلٌ يَشمَلُ جميعَ الطَّاعاتِ، ولكنَّه يَأْتي وقدْ شَتمَ هذا، أي: وَقعَ منه شَتْمٌ وسبٌّ لِأحدٍ، وقذَفَ هذا، وهو الاتِّهامُ بِالزِّنا ونحوِه، «وَأكَلَ مالَ هذا» بِالباطلِ، «وسفَكَ دمَ هذا» فأَراقَ دمَه بِغيرِ حقٍّ، «وضرَبَ هذا» مِن غيرِ استحقاقٍ، أو زيادة على ما يَستحِقُّه، وذِكرُ هذه السَّيِّئاتِ ليْس للحصرِ، بلْ هو تَمثيلٌ يَشمَلُ جميعَ المعاصِي، والمقصودُ جَميعُ حُقوقِ العِبادِ، والمعنى: مَن جمَعَ بيْن تلك العِباداتِ وهذه السَّيِّئاتِ، فَيُعْطَى هذا المظلومُ بَعضَ حَسناتِ الظَّالِمِ، ويُعطَى المظلومُ الآخَرُ بعضَ حَسناتِه، فإنْ فَنِيَتْ حَسناتُه قبْلَ أن يُؤدِّيَ ما عليه مِنَ الحقوقِ، أَخَذَ الظالِمُ مِن سيِّئاتِ أصحابِ الحقوقِ، فَطُرِحتْ على هذا الظالِمِ ووُضِعَتْ عليه، ثُمَّ أُلْقِيَ ورُمِيَ في النَّارِ؛ كَي يُعذَّبَ بها بقَدْرِ استحقاقِه إنْ لم يُغفَرْ له، وفيه إشعارٌ بأنَّه لا عَفوَ ولا شَفاعةَ في حقوقِ

---

[1] رواه مسلم: بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رقم(٢٥٨١).

العبادِ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ، فَيُرضِي المظلومَ بِمَا أرادَ، حتَّى إذا انتهَتْ عُقوبةُ تلك الخَطايا رُدَّ إلى الجنَّةِ إنْ كانت هناك حَسناتٌ باقيةٌ، وإلَّا فبَبركةِ الإيمانِ وبما كُتِب له مِن الخُلودِ.

وفي الحَديثِ:

١. بيانُ مَعنى المُفلِسِ الحقيقيِّ، وهو مَنْ أخَذَ غُرماؤُه أعمالَه الصَّالحةَ.

٢. وفيه: أنَّ القِصاصَ في الآخرةِ قدْ يَأتي على جميعِ الحسناتِ، حتَّى لا يُبقي منها شَيئًا.

الحديث التاسع والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ»، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ»، قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ»[1].

شرح الحديث

الشَّهادةُ في سَبيلِ اللهِ تعالَى مَنزِلةٌ عظيمةٌ، ومَرتَبةٌ جليلةٌ، أَجْرُهَا عظيمٌ، وثوابُها كبيرٌ، و أنواعُ الشَّهادةِ كَثيرةٌ مُتَعَدِّدَةٌ؛ أَشْرَفُهَا القَتْلُ في سبيلِ اللهِ تعالى.

وفي هذا الحديثِ

يَسألُ النَّبيُّ ﷺ الصَّحابةَ رَضيَ اللهُ عنهم معلِّمًا لهم، فيقولُ: «ما تَعدُّونَ الشَّهيدَ فيكُم؟»، أي: مَن تَظنُّون أنَّه شهيدٌ وتَحتسِبونه عندَ اللهِ مِنَ الشُّهداءِ؟ فقال الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم: «يا رسولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ فَهوَ شَهيدٌ»، أي: إنَّ الشَّهيدَ عِندنا -يا رسولَ اللهِ- هو مَنْ يُقتَلُ في أرضِ المعركةِ وهو يُحارِبُ في سبيلِ اللهِ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ شُهَداءَ أمَّتي إذنْ لقليلٌ»، أي: لو كان الشَّهيدُ فقط هو مَنْ يَموتُ في أرضِ المعارِكِ وهو يُحارِبُ في سبيلِ اللهِ، فشهداءُ المسلِمين إذنْ لقليلٌ، فسَألَه الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم: «فمَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ؟» أي: فَمَنْ هُمُ الَّذين يُعَدُّونَ شُهداءَ غَيْرَ مَنْ يُقتَلُ في سبيلِ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن قُتِلَ في سبيلِ اللهِ فَهوَ شَهيدٌ» أي: مَنْ قُتِلَ في المعارِكِ وهو يُقاتِلُ في سبيلِ اللهِ، فهو مِنَ الشُّهداءِ، «ومَنْ ماتَ في سبيلِ اللهِ فَهُوَ شَهيدٌ»، أي: وَمَنْ مات في أيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ طاعةِ اللهِ وهو عاقدٌ نِيَّتَه على أنَّه يُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، فهو مِنَ الشُّهداءِ، وسبيلُ اللهِ واسِعٌ يَشمَلُ أعمالًا كثيرةً مِنَ الخيرِ الَّذي يُبْتَغَى فيه وجهُ اللهِ.

ثمَّ ذكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ مَنْ مات بمرضِ الطَّاعونِ فهو مِنَ الشُّهداءِ، والطَّاعونُ هُو قُروحٌ تَخرُجُ في الجَسَدِ، فتَكونُ في المَرافِقِ، أوِ الآباطِ، أوِ الأيدي، وسائرِ البَدَنِ، ويَكونُ معه وَرَمٌ وأَلَمٌ شَديدٌ، وقيلَ: إنَّ الطَّاعونَ اسمٌ لكُلِّ وَباءٍ عامٍّ يَنتَشِرُ بسُرعةٍ، وقدْ سُمِّيَ طاعونًا لِسُرعةِ قَتْلِه.
ثمَّ ذكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ مَنْ مات بمرَضٍ في بَطنِهِ -كالاستِسقاءِ والإسهالِ ونحوِهِمَا- فهو مِنَ الشُّهداءِ. وفي رِوايةٍ: «ومَن غَرِقَ فَهو شَهيدٌ»، وعندَ البُخاريِّ: «صاحِبُ الهَدْمِ»، وهو الَّذي ماتَ تَحْتَ الهَدْمِ، والهَدْمُ اسمٌ لِما يَقَعُ، كالجِدارِ ونحْوِه.

---

[1] رواه مسلم: بَابُ بَيَانِ الشُّهَدَاءِ، رقم(١٩١٥).

وهذه الأنواعُ وغيرُها ممَّا ذُكِر في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ كلُّها مَيْتاتٌ فيها شِدَّةُ تَفضُّلِ اللهِ على أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ بأنْ جَعَلَها تَمحيصًا لِذُنوبِهم، وزِيادةً في أُجورِهم، يُبلِّغُهم بها مَراتبَ الشُّهداءِ.

ويَتحصَّلُ مِن ذلك أنَّ الشُّهداءَ قِسمانِ: شَهيدُ الدُّنيا، وشَهيدُ الآخرةِ:

١. فشَهيدُ الدُّنيا هو مَن يُقتَلُ في حرْبِ الكفَّارِ مُقبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ مُخلِصًا، والَّذي حُكمُه ألَّا يُغسَّلَ، ولا يُصلَّى عليه.

٢. وشَهيدُ الآخِرةِ هو مَن يُعطَى مِن جِنسِ أجْرِ الشُّهداءِ، ولا تَجري عليه أحكامُهم في الدُّنيا، فيُغسَّلون ويُكفَّنون ويُصلَّى عليهم.

الحديث الأربعون

عن زَيْد بْن وَهْبٍ الْجُهَنِيُّ، أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ، مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، «وَ آيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ» فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ: فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا، حَتَّى قَالَ: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ، فَقَالَ: لَهُمْ أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ، وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ، قَالَ: وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ، فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: أَخِّرُوهُمْ، فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ، فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالَ: إِي، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا، وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ "[1].

شرح الحديث

حذَّرَنا النَّبيُّ ﷺ مِنَ البِدَعِ والغُلوِّ في الدِّينِ؛ لأنَّ ذلك يُؤدِّي إلى إفْسادِ المجتمَعاتِ، وربَّما أدَّى التَّشدُّدُ معَ عدَمِ الفقهِ في الدِّينِ إلى تَبْديعٍ وتكفيرِ المجتمَعاتِ المسلِمةِ، والخروجِ على الحُكَّامِ بغيرِ وجهِ حقٍّ.

وفي هذا الحَديثِ يَرْوي التَّابِعيُّ زَيدُ بنُ وهْبٍ الجُهَنِيُّ أنَّه كان معَ عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه في الجَيشِ الَّذي سارَ إلى الخَوارِجِ ليُحارِبَهم، وكان ذلك سنةَ ثمانيةٍ وثلاثينَ منَ الهِجرةِ في مَوْقعةِ النَّهرَوانِ، تَقَعُ جنوبَ شَرقِ بَغدادَ بالعِراقِ على بُعدِ ٣٥ كم تقريبًا، وهُم مَن أنْكَروا على عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه التَّحكيمَ في قِتالِه معَ مُعاويةَ رَضيَ اللهُ عنه، ثمَّ قاتَلوه، وكَفَّروا المسلِمينَ،

---

[1] رواه مسلم: بَابُ التَّحْرِيضِ عَلَى قَتْلِ الْخَوَارِجِ، رقم(١٠٦٦).

واستحَلُّوا دماءَهم. فخطَبَ عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه في جَيشِه تَثْبيتًا وحثًّا لهم على القِتالِ والصَّبرِ فيه، وأخبَرَ أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يُبيِّنُ بعضَ صِفاتِ الخَوارِجِ، وأنَّهم يَكونونَ قَوْمًا مِن أمَّةِ الإسْلامِ «يَقْرَؤونَ القُرْآنَ»، أي: يُكثِرونَ من تِلاوتِه، وكذلك هم كَثيرو الصَّلاةِ والصِّيامِ، بحيث إنَّ النَّاسَ إذا قارَنوا بينَ حالِهم وحالِ غيرِهم، لا يَعُدُّونَ عبادةَ غيرِهم بالنِّسبةِ إليهم شيئًا، «يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ يَحْسَبُونَ أنَّهُ لهمْ»، أي: حُجةٌ لهم في إثْباتِ دَعاويهم، وليس هو كذلك في الحقيقةِ، بل هو حُجَّةٌ عليهم عندَ اللهِ تعالى، وفي الصَّحيحَينِ من حَديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضيَ اللهُ عنه: «لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُمْ»، وكذلك فإنَّ صَلاتَهم لا تُجاوِزُ تَراقِيَهم، ويَحتمِلُ أنَّ المرادَ بالصَّلاةِ هنا: القِراءةُ فيها، والتَّراقِي: جمعُ تَرْقُوةٍ، وهي العَظْمُ الَّذي بيْنَ ثُغرةِ النَّحرِ والعاتقِ، فإنَّهم لا يَفقَهونَ القرآنَ، ولا يَنتفِعونَ بتِلاوتِهِ، ولا يتَدبَّرونَ آياتِه، ولا يتفَكَّرونَ في مَعانيه، فلا تَصِلُ إلى قُلوبِهم بالتَّدبُّرِ والخُشوعِ، ولا تَصعَدُ إلى السَّماءِ، فلا يَكونُ لهم بها أجرٌ ولا ثوابٌ، «يَمرُقونَ»، أي: يخرُجونَ مِنَ الإسْلامِ سَريعًا، ولا يَتعَلَّقونَ مِنْه بشَيءٍ، كما يمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّميَّةِ، أي: مِثلَ السَّهْمِ القَويِّ السَّريعِ الَّذي يَخترِقُ الهدَفَ المَرْميَّ إليه، ويَنفُذُ في الصَّيدِ، ومِن قُوَّتِه وسُرْعتِه يَدخُلُ مِن جِهةٍ، ويَخرُجُ مِنَ الجِهةِ المُقابِلةِ ولا يكونُ فيه أثرٌ مِن دَمٍ أو لَحْمٍ، ثُمَّ إنَّهم لا يَرجِعونَ إلى الدِّينِ، كما لا يَرجِعُ السَّهمُ إلى مَوضِعِه مِنَ القَوْسِ.

ثمَّ يَذكُرُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنهما أنَّه لو يَعلَمُ الجيشُ الَّذين يَقتُلونَهم ويَغلِبونَهم، ما أخبَرَ به نَبيُّهم ﷺ وحكَمَ لهم به منَ الأجْرِ والثَّوابِ، لاعْتَمَدوا على تلك البِشارةِ وتركوا العملَ اتِّكالًا على المثوبةِ الَّتي بُشِّروا بها بسببِ قَتلِهم للخَوارِجِ.

وعلامةُ هؤلاء الخَوارِجِ «أنَّ فيهم رجُلًا له عضُدٌ» وهو ما بيْنَ الكتِفِ إلى المِرفَقِ، وليس له «ذراعٌ» وهو ما بيْنَ المِرفَقِ إلى الكفِّ، ويوجَدُ على رأسِ عضُدِه مِثلُ «حَلَمةِ الثَّديِ»، وكذلك يوجَدُ على رأسِ عضُدِه شَعَراتٌ بِيضٌ.

ثُمَّ أنكَرَ عَليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه على الجَيشِ بطَريقةِ الاسْتِفهامِ: أتُريدونَ أنْ تَذهَبوا إلى مُعاويةَ وأهلِ الشَّامِ وتُقاتِلوهم وتَتْرُكوا هؤلاء الخَوارجَ، يَخلُفونَكم في نِسائِكم وأطْفالِكم، ويَنهَبونَ أمْوالَكم؟! والمَعنى: لا يَنبَغي ولا يصِحُّ أنْ يحصُلَ هذا، وغرضُه بذلك الحثُّ على المبادَرةِ بقِتالِهم قبلَ الخُروجِ إلى مُعاويةَ وأهلِ الشَّامِ. ثُمَّ أقسَمَ عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه فقال: «واللهِ، إنِّي لأرْجو أنْ يكونوا هؤلاء» الَّذين بينَنا وخَرَجوا علينا وعن طاعَتِنا، «القومَ» الَّذين أخبَرَ عنهمُ النَّبيُّ ﷺ ووَصَفَهم لنا؛ فإنَّهم بالَغوا في إراقةِ دمِ

المُسلِمينَ، وهو دمٌ محرَّمٌ سَفكُه؛ وذلك أنَّهم قَتَلوا عبدَ اللهِ بنَ خبَّابٍ وأمَّ وَلدِه، «وأغاروا في سَرحِ النَّاسِ»، أي: على أمْوالِ النَّاسِ ونَهَبوا مَواشِيَهم السَّائمةَ، ثُمَّ قال عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه: «فسِيروا على اسمِ اللهِ» يَعني: على بَرَكةِ اسمِ اللهِ، مُستَعينينَ باللهِ ومُتوكِّلينَ عليه، وفيه دليلٌ على ابْتِداءِ الأعْمالِ بذِكرِ اللهِ.

ويُخبِرُ سَلَمةُ بنُ كُهَيلٍ الحَضرَميُّ الكوفيُّ -أحدُ رُواةِ الحَديثِ-: أنَّ التَّابِعيَّ زَيدَ بنَ وَهبٍ ذكَرَله مواضِعَ سَفَرِهم لقتالِ الخَوارِجِ مَوضعًا مَوضعًا، حتَّى بلَغَ القَنطرةَ الَّتي كان القِتالُ عندَها، وهي قَنطرةُ الديزجانِ، كذا جاء مُبَيَّنًا في سُننِ النَّسائيِ الكُبرى، والقَنطرةُ ما يُبْنى على الماءِ للعُبورِ عليه، وهي جسرُ النَّهرَوانِ الَّذي اجتَمَعَ عندَه الخوارجُ. ويَحْكي زيدُ بنُ وَهبٍ أنَّه لمَّا الْتَقى الجَيشانِ للقتالِ، كان أميرُ الخَوارجِ يومَئذٍ عبدَ اللهِ بنَ وهبٍ الرَّاسبيَّ، فقال للخَوارجِ: ارْموا الرِّماحَ، وأخْرِجوا السُّيوفَ مِن أغْمادِها، يُريدُ بذلك أنْ يَبتدئَ الجَيشانِ بالقتالِ، فلا يكونُ هناك أيُّ احْتمالٍ بَديلٍ للقتالِ، كالهُدنةِ والمُناشَدةِ، وهي أنْ يَسْألوهم باللهِ ويُقسِموا عليهم، فيَتَراجَعَ بعضُ أصْحابِه عنه، وتَضعُفَ قوَّةُ جَيشِه، فالمقابلةُ بالرِّماحِ يَصحَبُها تباعُدٌ بينَ الجَيشَينِ، والَّتي يَحتمِلُ معَها شَفَقةُ البعضِ عندَ رُؤيةِ الدِّماءِ، فيَدْعو إلى التَّوقُّفِ عنِ القتالِ، أمَّا القتالُ بالسيفِ فسُرعانَ ما يَنشَبُ ويَنتهي بهزيمةِ أحدِ الجَيشَينِ، وكان ابنُ وَهبٍ يأمُلُ أنْ يكونَ هو المنتصِرَ في تلك المَعركةِ، وقولُه: «كما ناشَدُوكم يومَ حَروراءَ» هي قريةٌ بقُربِ الكوفةِ، يُنسَبُ إليها فِرقةٌ منَ الخَوارجِ، كان أوَّلُ اجْتِماعِهم بها، والمرادُ باليومِ: هو اليومُ الَّذي اجتَمَعَ فيه الخَوارجُ، وهم ثَمانيةُ آلافٍ، وقيلَ غيرُ ذلك، فنَزَلوا حَروراءَ، وكان كَبيرَهم عبدُ اللهِ بنُ الكَوَّاءِ اليَشْكُريُّ، وشَبَثٌ التَّميميُّ، فأرسَلَ إليهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه ابنَ عمِّه عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، فناظَرَهم، فرجَعَ كثيرٌ منهم معَه، ثُمَّ خرَجَ إليهم عَليٌّ، فناشَدَهم، وناقَشَهم، فأطاعوه، ودَخَلوا معَه الكوفةَ. فلمَّا سمِعَ الخَوارجُ عبدَ اللهِ بنَ وهبٍ أطاعوه «فوحَّشوا برِماحِهم»، أي: رمَوْا بها بَعيدًا منهم، ودَخَلوا في قِتالِ جَيشِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه بالسُّيوفِ، فكان في هذا الرَّأيِ فَتحٌ للمُسلِمينَ وجيشِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، وصيانةٌ لدِمائِهم، وتَمكينٌ لهم، «وشَجَرَهمُ النَّاسُ برِماحِهم»، أي: طعَنَهم أصْحابُ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه برِماحِهم مثلَ الشَّجرِ، وسُمِّيَ الشَّجَرُ شَجَرًا؛ لتَداخُلِ أغْصانِه، فرَماهم أصْحابُ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه بالرِّماحِ قبلَ أنْ يَصِلوا إليهم، ثُمَّ الْتَحَموا معَهم وقَتَلوا

منهم المَقْتلةَ العَظيمةَ، ولم يُقتَلْ من فريقِ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه إلَّا رجُلانِ، وقولُه: «وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ علَى بَعْضٍ»، أي: حتَّى ركِبَ بعضُهم فوقَ بعضٍ لكَثرةِ القَتْلى، فصاروا أكْوامًا.

ثُمَّ أمَرَهم عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه بعدَ انْتِهاءِ المعركةِ أنْ يَبحَثوا عنِ الرجُلِ «المُخدَجِ»، أي: ناقصِ الخَلْقِ، وهو الَّذي ذُكِرتْ صِفتُه في أوَّلِ الحَديثِ، فطَلَبوه وبحَثوا عنه فلم يَجِدوه، فقام عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه بنفْسِه حتَّى أتى كَوْمةً منَ المَقْتولينَ منَ الخَوارِجِ، فأمَرَ أنْ يُباعَدوا عن بعضِهمُ البعضِ، فوجَدَ تحتَهمُ الرَّجلَ الَّذي يبحَثُ عنه ميِّتًا، فكبَّرَ عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه تَعجُّبًا من وِجْدانِه الرَّجلَ المُخدَجَ على الوَصفِ الَّذي وصَفَه النَّبيُّ ﷺ به، ثمَّ قال بعدَ التَّكْبيرِ: «صدَقَ اللهُ» سُبحانَه وتعالى فيما أوْحى إلى نَبيِّه، «وبلَّغَ رسولُه» رسالتَه إلينا، وإلى النَّاس حقًّا.

وأخبَرَ زيدُ بنُ وَهبٍ الجُهَنيُّ أنَّ التَّابِعيَّ عَبيدةَ السَّلْمانيَّ نادى عليًّا رَضيَ اللهُ عنه: يا أميرَ المُؤمنينَ، و أقسَمَ عليه باللهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو إنَّه لسَمِعَ هذا الحَديثَ مِن رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال عليٌّ رَضيَ اللهُ عنه مُقسِمًا: «إيْ، واللهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو»، أي: نعمْ سَمِعتُه مِن رسولِ اللهِ ﷺ ، «حتَّى استَحلَفَه ثلاثًا» و إنَّما استَحلَفَه ليُسمِعَ الحاضِرينَ، ويُؤكِّدَ ذلك عندَهم، ويُظهِرَ لهم المُعجزةَ الَّتي أخبَرَ بها رسولُ اللهِ ﷺ ، ويُظهِرَ لهم أنَّ عليًّا وأصْحابَه أَوْلى الطَّائفَتَينِ بالحقِّ، وأنَّهم مُحقُّونَ في قِتالِهم.

وفي الحَديثِ:

١. خُطورةُ الجهلِ بالدِّينِ والاسْتبدادِ بالرَّأيِ.
٢. زيادةُ الثَّوابِ في قَتلِ الخَوارِجِ.
٣. التَّحْذيرُ مِنَ الغُلوِّ في الدِّيانةِ، ومِنَ التَّنطُّعِ في العِبادةِ.
٤. قِتالُ مَن خرَجَ عن طاعةِ الإمامِ العادلِ.
٥. ذِكرُ بعضِ صفاتِ الخَوارِجِ.
٦. فَضيلةُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه.
٧. الاسْتِحلافُ مِن أجْلِ التَّثبُّتِ مِنَ الأمْرِ الغَريبِ؛ لتَأْكيدِه عندَ السَّامِعينَ.

الخاتمة

الحمد لله الذي أكرمنا بخاتم النبيين، وجعلنا من أمة خير المرسلين، أمةٍ ما خُتمت بها الرسالات إلا وكانت رحمة للعالمين.

لقد سارت بنا هذه الصفحات في رحاب الشفقة النبوية، وتفيّأنا ظلال أحاديثٍ تقطر حبًا وحرصًا وخوفًا على الأمة، حتى في أشد مواطن الهول والكرب.

قرأنا عن النبي ﷺ وهو يقف شفيعًا، يدعو" :أمتي أمتي"، ويناجي ربه، ويختار لهم الدعاء دون غيرهم، ويُبشَّر فيُبشِّر، ويُعطى فيسأل من أجلهنّ لا من أجله.

فهل بعد هذا القلب قلب؟

وهل بعد هذا الحبّ حب؟

إن شرف الانتماء إلى أمة محمد ﷺ ليس بالتمني ولا بالأماني، بل بالصدق، والاتباع، والحرص على ما يُرضيه، والبعد عمّا يشقيه.

فيا قارئ هذه الكلمات، اجعل من هذه الأحاديث ميثاقًا قلبياً تتجدّد به نيتك، وتُضيء به طريقك، وتلتمس به شفاعة نبيك ﷺ.

واذكر دومًا: من أحبه ﷺ واتّبع سنّته، نال حبه، وكان معه يوم القيامة، كما قال ﷺ **«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»**"[1].

نسأل الله أن يجعلنا ممن أحب نبيه ﷺ حبًّا صادقًا، واتبعه حق الاتباع، وأن يرزقنا مرافقته في الفردوس الأعلى.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

[1] صحيح البخاري: بَابُ عَلاَمَةِ حُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،(٦١٦٨).